

هجرة إلى موت

وإذا الثورة سُئلت بأي ذنبِ سجت

رواية

على عمار

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحلیم

الطبعة الأولى

الكتاب : هجرة إلى موت

المؤلف : على عمار

غلاف : محمد عطية

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٨٨٩٠ / ٢٠١٧

التقييم الدولي : 3 - 592 - 776 - 977 - 978

تنويه

محتوى الرواية يتحمل مسؤوليته المؤلف وحده

وقد أقر بذلك

الناشر

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء إلى ..

روح أبي الخالدة في ذاكرتي .. أبي الذي ألهمني الجدية والسعي
في الحياة

إلى ..

أمي التي مازلتُ في حضنها طفلاً

إلى ..

نفسي التي تتقبلني وإن أنتقصني كثيرون

إلى روح الشهداء ..

المقدمة

ما كان ذنبهم إلا أنهم أرادوا حياةً أفضل « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ».

ودّوا لو أنهم يذوبون فى مياّه هذا النيل الحالم، فيصب بهم على شطآن عباب البحر المالح؛ فينبعثون هناك من جديد، أو يصيرون أشباحًا وينفذون من أقطار هذا الوطن الصدئة، أو يتمطون الرياح المزمجرة بصوت الشتاء الجاف..

اختاروا الغربية، بل ناشدوها أو تمنوها، وركضوا وراءها بآمالٍ جامحة ترفل فى عباآت المستقبل المنشود، ولم يثنهم عنها تلك المخاوف وأشباح القلق التى طاردوها أملاً وطمعاً فيما ناشدوه.

عبقوا اليأس من أزهار الوطن، وتجرعوا العلقم من شهبه، رأوا أنفسهم بضاعة رخيصة بخسها وطنهم بماله الفاحش المنهوب، جرحوا فلم يضمّد جرحهم، فأفقروا فلم يغنّ فقرهم، اضهدوا فلم يعطهم حريتهم..

ويظل صوت العدل عاجزاً عن الأذعان بحقيقة مؤلمة!!

وحسبك أن ترى عقلك وضميرك جامدين عن دورهما حيال تلك الحقيقة. إنها الجريمة التى تصرخ خرافات العدالة بأدلتها

الصارمة؛ فيكون الضحايا هم الجناة، والجرم هو العقاب،
وصاحب الحق هو المحقوق، والسائل هو المسؤل!!

فيا ترى من المسؤل؟

أهو الوطن أم هؤلاء المهاجرون؟

عزفتُ الحاني

بأشجاني

أغنيةً

كلماتها أساى

ولحنها فقرى

فتلك أغنيتى وإن لم تسمعى

وهلا سمعتِ شيئاً عن رحلة العمرِ؟

هل أتتكِ أخباري

يوم حادثتى

وأنتِ ثملةٌ فى نزوةِ القصرِ؟

أنا ذلك الغارق الذى

توارت أحلامه فى شهقةِ البحرِ

الكاتب

تمهيد

هناك فى عُرض البحر على بعد كيلوات من الأمتار من شاطيء الوطن مركب هش هزيل تترقب هلاكها -غرقا فى قاع البحر- مثلها مثل مراكب الهجرة غير الشرعية. هذه المركب تأبى خوض فزع الهلاك وحدها، تنتظر شاباً وصبيان وافدين إليها وهم يحملون على عاتقهم وكواهلهم آمالهم وطموحاتهم فى حقائب قد تكون أكفاناً لرفات بعضهم..

هذه المركب تنتظر لتحمل معها هؤلاء الشباب والصبيان الذين هم مستقبل هذا الوطن الموحوع؛ لتواريه فى جوف الحيتان، أو ترمى به على شطآن الغربة؛ لتكون النهاية لكمة على وجه وطنٍ ثمل، أو مسحور عن الوعى الحضاري.

لأنهم شعب مكبوت؛ تحولت الحرية إلى فوضى،
فكانت العبودية!!

الكاتب

«حد قال لك انهم حاجزين في خمس نجوم والأف في
الدرجة الأولى في تيتانيك، كلهم كدا شبه المركب اللى
هايسفروا عليها، أملهم ضعيف في الحياة»

التدبير الخفى (١)

تطل هالة سوداء هناك من بعيد، تقترب شيئاً فشيئاً تجآه
الترسانة؛ لقد أجرى مدير الترسانة هاتفاً لأحدهم ليبتا معاً فى
أمرٍ خطير،

بدت الهالة السوداء عندما وقفت إطاراتها أمام بوابة الترسانة
على شكل عربة (BMW) موديل السنة أو ملحق ليست أبعد
من هذا، تبدى المشهد كنايةً عن سلطة و ثراء اجتماعاً لصاحب
السيارة.

يُفتح الباب الأمامى وتنزل بنية بشرية أبلغ ما توصف أنها
مصارع ثيران!

يرتدى بدلة سوداء وقميصاً أسود، وتغضى ملامحه تلك النظارة
السوداء. يبدو عليه أنه لا يعرف أن البشر يبسمون ويضحكون كما
يأكلون وينامون. عابس، جاحظ بملامحه، وهذا ما يسمونهم:
(بودى جارد)، يخطو للخلف قليلاً، يقبض على الباب الخلفى
للعربة يفتحه، وكأنه يرحب بنزول أحدهم بعدما جال بعينيه
من تحت النظارة السوداء أركان المكان، نزل من الخلف شخص
ظهرت عليه علامات التيه والتكبر، يختال فى مشيته، قوامه
طويل، وجه مثلث، أنفه منتفخة، بؤبؤ عينيه جاحظان، لا يبتسم،

يرتدى بدلة سوداء، تتخللها خيوط رأسية، رابطة عنقه كحلية اللون، تقسمها خطوط أفقية، القميص يشبه لون رابطة العنق، الحذاء أسود من الليل الحالك، قطعة ظلام تمشى على قدم.

إنه رمز للظلام، هكذا وصفه الشيخ سلامة الذى لم ينشرح صدره لرؤية المشهد.

الشيخ سلامة الرجل الخسمنى النحيف، الوافد على شواطئ البحر ينحدر لأصول صعيدية، لا أحد هنا يوقن قصته.

قادت خطوات الرجل الأسود كما يصف الشيخ سلامة ومعه مصارع الثيران إلى مكتب مدير الترسانة، وما هى إلا دقائق معدودات وخرجوا ثلاثة متجهين إلى الشاطئ حيث المراكب ترسو. كانوا اثنين فصاروا ثلاثة، انضم لهم ثالثهم، مدير الترسانة، لكن ثالثهم أجمل رؤية، وأبسم وجهًا من أولهم وثانيهم، رجل بسيط متواضع، طالما يجالسه الشيخ سلامة ويحدثه.

مدير الترسانة يتبادل الحديث مع الرجل الأسود ومصارع الثيران متصلب لا يهمس لا ينبس.

مدير الترسانة باستياء نبا عما كان بينهما من حديث مضطرب:

- يا رشدى بيه ما ينفعش خالص!!

رشدى بيه بلا مبالة:

- هاينفع، اعمل اللي عليك وجهز المركب.

مدير الترسانة:

- إزاي؟! هتبقى مجازفة بالمركب وبأرواح ناس؟!!

- إنت مش هتبقى أحرص على المركب من صاحبها !

فعقب مدير الترسانة متسائلاً بدهشة مضطربة:

- طب والناس اللي هتسافر بها؟!!

ينفعل الرجل، تُشد أعصاب وجهه، ويبدو كتيس متحفز للهجوم، منتصب القرون ليقرع خصمه، ينفخ من فمه سحابة دخانية ويرد بحدة على مدير الترسانة قائلاً:

- حد قال لك إنهم حاجزين فى خمس نجوم، ولأ فى الدرجة الأولى فى تيتانيك، كلهم كدا شبه المركب اللى هايسفروا عليها، أملهم ضعيف فى الحياة، خلّص فى دورك؛ أنا مش فاضى كل شوية أحكى معاك فى كلام فارغ، إنهي، المركب هتسافر يعنى هتسافر.

ألقى بلفافته الدخانية وأعطى لمدير الترسانة ظهره ورحل هو و مصارع الثيران إلى العربة. همّ مصارع الثيران بفتح الباب لما اقتربا من العربة. ركبا العربة ودار محركها وزحفت إطاراتها على وجه الرصيف، يتلاشى صوتها وهيكلها يبتعد، ومازال مدير الترسانة يحدّق بصمت فى هيئة المركب؛ أصابه شيء من الصدمة!

عاد الأخير إلى مكتبه، ألقى بنفسه على الكرسي وكأنه يحمل جبلاً على عاتقه. دخل عليه الشيخ سلامة بعدما رآه مغموماً بعد زيارة هؤلاء المخيفين -حسبما أخالهم - لم يكن يطمئن الشيخ سلامة لزيارتهم؛ فى نفسه هواجس مخيفة من قدومهم.

الشيخ سلامة:

- مالك يا أستاذ سالم؟

يرد وأثار الوجوم قد ترسبت على وجه:

- أبدا مافيش .. يا عم سلامة

- الناس اللي كانت عندك زعلوك في حاجة، شكلك مدايق

- أنت حسابك كام يا عم سلامة عشان أنا نازل القاهرة؟

- حساب! .. يبدى إندهشيه من كلام الأستاذ (سالم) فيرد

عليه الأخير يؤكد على كلامه، أه ياعم سلامة:

- حسابك كام؟

- طب لما تنزل وتيجي بالسلامة

- لا، أنا هنزل ومش راجع تانى!

- ليه يا أستاذ سالم؟

ينظر من النافذة التي تطل على الشاطئ الذي ترسو عليه

المراكب ويقول بنبرة عجز ممقوت:

- همشى وسايبها لهم.. هما المسئولين،!!

عندها أدرك الشيخ سلامة أن هواجسه وراءها أمر جلل.

ذكرى (١)

ينفرط عقد المسبحة وتشرذ حبيباتها على سجادة الصلاة، المطبوع عليها صورة القدس. بدأ يللم حبات العقد المنفرط ألتى تعكس ضياء الشمس فى وجهه، هذه الحبيبات المصنوعة من الزجاج البراق أهديت للشيخ هلال من أحدهم بعد ما ابتاعها له من أمام مسجد الحسين

يللم حبات المنفرط بأطراف أنامله اليمنى ويضعها فى باطن كفه اليسرى المقعرة كالصحن.

صلاة الضحى سنة اعتادها الشيخ هلال منذ صغره، يحافظ عليها كل يوم، يصلى الفجر فى جماعة المسجد ثم يعود إلى بيته فى غرفة تطل على مشرق الشمس، يدخل بعدما يعود من المسجد، يفتح النافذة ليمسح لخيوط الشروق أن تنسج بردة الصباح على وجهه وهويتمتم بأذكار الصباح، وما أن نسج الصبح بردة الضحى على جسد الدنيا حتى قام الشيخ هلال فركع ركعتيه ثم خرج يتمشى نحو مطعم (أبو محمود).

الشيخ هلال بلغ الستين من عمره، متوسط القامة، مربع الوجه، أنفه حادة، تزين ملامحه اللحية البيضاء، عريض المنكبين، الأبتسامة الحزينة تكشف عن ثغره البراق كحبات

الماس، يغطي شعر المشيب بقلنسوة بيضاء ملفوفة على رأسه
كهيئة فرسان العرب، يرتدى جلباباً أبيض قصيراً. الشيخ هالة
بيضاء تمشى على قدمين.

على بعد خمسين متراً من منزله أول العطفة (المطعم).

- صباح الخير يا أبو محمود.

يرد أبو محمود:

- صباح الخير يا شيخ هلال، وهو يقْرص عجيين الفلافل
ويلقى به في الطاسة فيسمع له طشطشة تتلاشى مع احمرار
القرص:

- نص سوا يا كُبّارى، لما نكونوا في سنكم هيخلطوا لنا المية
في الخلاط ثم كشف عن طقم أسنانه المتهاك معظمه، المتسوس
كله. أكلتم إنتم الخير كله قبلنا.

يقول هذا بابتسام مداعباً الشيخ هلال، لأنه يعلم أن أسنان
الشيخ هلال ضعفت، وهو يوصيه أن يقلى له (الطعمية) نصف سوا.
الشيخ هلال سائلاً:

- فين ابنك محمود، مش هنشفوه ليه؟

- والله ياعم هلال راح مع أمه عشية بيت جده، عشان يشوفوا
خاله رجع من يومين من إيطاليا.

الشيخ هلال:

- حمدلله على سلامته، وهو عامل إيه في سفرياته؟

أبو محمود يداعب أقراص الفلافل بالمصفاة تقليباً:

ماحدث قدّه متظبّطة معاه عالآخر، هو أبوه اتجوز منين
يعنى؟ من فلوس مآيلان،

تندى عن صف لؤلؤ الشيخ هلال إبتسامه هادئة كهدوء
الصبح، قائلاً:

- قصدك ميلان،

أبو محمود:

- المهم انها فيها فلوس.

لمح أبو محمود كف الشيخ هلال خالية من مسيحتة، تعتاد
رؤيته كل صباح ممعماً، مسبحاً، صورته كالبدنر وسط الدجى!!
لماذا نقص فى المظهر اليوم المسيحة؟!!

سأله:

- مش هنشوفوا سبحتك ليه يا عم (هلال) نسيتهها فين؟

رد عليه الشيخ هلال وهو يسلك كفه الأيمن فى فتحة جلبابه
الأبيض باسطاً يده إليه وفى باطن كفه حبات العقد المنفرط
قائلاً:

- هى الذكريات ممكن ننسوها يا أبو محمود؟

يحدج (أبو محمود) فى كف الشيخ هلال وتتخلل إشارات
عينيه بين الحبيبات المنفرطة، يندهش من المشهد الجديد الذى
بدت عليها حبات المسيحة. أبو محمود تعود على رؤية المسيحة

معلقة ومتهدلة بين أنامل الشيخ، تدور الحبات فى انسيابية،
بحركة دائرية بين السبابة والأبهام مع تناسق تسبيحي - وكأنها
شلال مائي- لكن الصورة الجديدة تبدو حبات المسبحة كحبات
فشار فى صحنٍ مُقعر، رُغم أنها تلمع وتبرق فى كفه وتعكس
اشعة الشمس إبراقا وإشراقا.

- ما يهكمش يا عم هلال لم نروحو مصر عشان نجيبوو
بهارات الطعمية والفول والذى منه هنجبوا لك سبحة غيرها إن
شاء الله

إبتسم الشيخ هلال وهز رأسه قائلاً:

مش ممكن نستبدلها بسبحة غيرها، هانلضموها ثم تنهد:

دى بتحمل جميل الذكريات يا ابو محمود إنها جزء من
حياتي!!

هات الفطار يا رجل يا طيب هات

هكذا كانت مسبحة الشيخ هلال، حبيباتها درر من ذكريات
نفيسة لا تنسى.

بعد يومين من انفراط العقد

صباح الخير يا أبو (محمود) إدينى باتنين جنى طعمية وحبّة
فول. كان هذا صوت أحد الزبائن يبتاع إفطاره.

الزيت فى المقلاة - التى يسوى فيها (أبو محمود) عجيين
القول ليصير فلافل- يشتكى حرارة الشمس والنار الموقدة تحته
من الشعلة، الضحى بلغ ذروته فى بساط السماء:

- محمود، جدك هلال ما شوفتوش؟

- لأ، لسه ماجاش!

- الرجل الكُبارى مش متعود يتأخر كدا!! ما اصتبحناش
بطلعته المنورة

- تلاقيه نايم يابا.

- خد بالهنا، ناول الطالب مطلبه، والله يابنى احنا صلينا
الفجر وهو خرج معايا وكان وشه غريب، ما تروح تبص على يا
حودة شوفه كدا أتأخر ليه مش عادته يابنى يتأخر!!

- ماشى ياباي.

يهرول محمود قبالة منزل الحاج هلال طاعةً لأمر أبيه واطمئناناً
على الجد. طرقات قارعة، ونداءات صاحبة لجده الشيخ هلال،
لكن باءت بلا جدوى؛ لم يرد أحد!

الباب به فرجة بسيطة لكن الفتى يابى أن يقتحم حرمة
بيت الجد دون إذن، يستدير للعودة بعدما يئس من الجواب وفى
خاطره: أين ذهب الشيخ؟

عاد لأبيه وأنبأه بالأمر: ناديت ياباي وخبطت بس محدش رد.

يعقد أبو محمود حاجبيه ويردد:

- محدش رد.

ثم اردف: تلاقيه ماسمكش وانت بتنادي.

- لأ، ناديت كتير وخبطت !

- طب احنا هنروحوا نشوفوه شوية وراجع لك، هادى الشعلة على الطاسة.

يتمشى (أبو محمود) ناحية منزل الشيخ هلال، وعلامات الأستفهام تسبق خطواته.

اقترب من المنزل وتوقف أمام الباب يقرعه بقبضته وهو ينادي:

- حاج هلال، حاج يا حاج، يا بركة.

لا جدوى. لم يرد.

التوجس زاده مراودة فى جوانحه، صمت لبرهة ثم زج بمصرع الباب ودلف إلى الداخل، لم تكن خطواته الثانية لحقت الأولى حتى رمق الشيخ هلال منكفئاً على سجادة الصلاة، من أول وهلة برهن توجسه أن الأمر جلل، ضربت به صواعق من التوتر والخوف وخفق قلبه قلقلًا، عاش فى ثوان أشد أوقاته فزعا وهلعا.

- يا حاج يا حاج!

وهو يهرع إليه عدل جلسته، استند الشيخ على صدره وهو يناديه بصوت مفزوع:

- حاج يا حاج!

لثم على خد الشيخ بأطراف أصابعه :

- يا حاج يا حاج!

لم يجبه غير أنفاسه المقطوعة وحرارة جسده التى هدأت ومالت إلى البرودة والنور الأبيض الذى كسا ملامح الشيخ، أيقن أبو محمود أن الشيخ لن يعود إليه ليشتري منه الأفطار ثانيةً، وأنه لن يصطبح بهذه السحنة بعد اليوم، ها هو آخر صباح ترمقه فيه عيناه.

- «إنا لله وإنا إليه راجعون»!؟

قالها بصوت محزون مكلفة حروف كلماته بدموع فراق قبل أن يرخى جثمان الشيخ ويغطيه بملاءة ويخرج، نصبت طقوس المأتم، وفى عرصة السرادق تليت الآيات وأخذت التعزيات، لا حديث غير الدموع والبكاء فى الحال مات الحاج هلال.

أشبه أحياء (الفقر ١)

«الصلاة خيرٌ من النوم الصلاة خيرٌ من النوم الصلاة خير من النوم الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله»

مع هذا النداء الفجرى تستيقظ أم نبيل من نومتها وتنبعث من مرقدتها.

«أصبحنا وأصبح الملك لله» مع تثاربه تكفكفها بيدها المتخشبة. أم نبيل السيدة التي تصارع الأمراض فى سنها الخمسين، سيدة قصيرة القامة، ممتلئة الشحم نسبياً رغم أن الأمراض فى آخر عامين تآكل من جسدها كما تآكل النار الحطب، وجهها كسآه الشحوب، عيناها حزینتان ذابلتان، وقدمآه مشققتان من كعبيهما، بصرها ضعيف أوشك على العمى، تسكن هى وابنها نبيل فى هاتين الحجرتين الهشتين فى المنطقة العشوائية بمنشية ناصر.

أم نبيل لا تقوم فى هذه الساعة لتصلى الصبح فحسب، إنما لتعلن جهاد يومها وتمارس نشاطها الكفاحى المعهود طلباً للرزق. وقبل أن ينسج الشروق خيوطه البيضاء على صفحة الليل الباهت، تكون ملائكة الرزق قد بدأت تعد وتكتب خطوات المكافحة أم نبيل وهى تنقل خطواتها نحو ناصية الشارع التى تبتعد أمتار عن بيتها المرهون، حيث ركن بجوار مطعم (كل واحمد) ركن يرسم

ملاحح الست المصرية المكافحة التى تقاوم مغالب الحياة العصبية بصبرها وعزمها الميئوس؛ لتكفل نفسها وابنها الشاب العاقل.

تسير أم نبيل بخطوات رديئة بطيئة أبطأها المرض- وكأنها سلحفاة تتشمس على رمل الشاطيء- قاصدة ذلك الركن الذى ينتظر لقاءها كل صباح، فى يدها اليسرى قفص مصنوع من جريد النخيل يتزين بلون زيرابي، يحمل فى صنعته بصمات أنامل مبدعة شكّلتها على تلك الصورة المبهرة، وفى يدها اليمنى تمسك بعصاها التى تتوكأ عليها ولا تهش بها على غنمها؛ لأنها لا تملك مادياً ولا صحياً أن يكون لها غنم فتحشه، هى تكتفى بالريح من بيع حُرَيّمات عيدان الجرجير والفجل وشيء من فسيل البصل، بعد أن رحمتها الأمراض من مشقة ومهانة الخدمة فى بيوت (ولاد الأكابر والبهوات) وإن كانت الأمراض رحمتها من هذا فقد أسندت لها مهاماً أخرى لتكتسب منها قوت يومها فضلاً عن أنها أجبرتها على مصاحبة العصا بعد أن أعشت عينيها، هذه الأمراض المتنوعة بين: الضغط، والسكر، وفيرس الكبد.. تكفل التأمين الصحى بإعطاء أم نبيل شهرياً حبيبات من أقراص المضادات الحيوية، وأنبولات الحقن، والسوائل الدوائية، وكلها مسكنات تحت مسمى «الدواء». التأمينات الصحية القنوعة بقوله تعالى: «وإذا مرضت فهو يشفين» ترى هذا النص القرآنى منحوتاً على كل الجدران الهشة للمشافي العامة فى مصر دون الخاصة «راحة المريض خدمتنا».

تقعد أم نبيل على ظهر جلمود جبرى أملس بعدما ألقت تحية الصباح على صاحب مطعم (كلّ واحمد) الرجل الأربعينى صاحب الشارب الكثيف المتهدل على شفقتين يابستين، والعين القارحة.

يُخرج لها عهدتها، بساط منسوج من خيوط الخيش (جوّال)،
دقائق ويأتي فتى يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا حاملاً بضاعتها
المتكل عليها رزقها (الجرجير والفجل والبصل).

كعاداته نبيل في أيام بطالته التي أكثر من أيام شغله يقوم
مع غروب الضحى متكاسلاً مترنحاً كالسكير الثمل، أثقل رأسه
النوم بعد طول سهر مع الشلة الليلية صاحبة المزاج المثمر على
نبيل بغرامات مالية ضاقت بها أمه ضجرا ومقتا.

- صباح الخير ياما.

- صباح الخير ياابني.

وتمد يدها في الصرة التي تضع فيها النقود وريقات وقطع
فضة من الجنيهات التي ربحتها، ومما رزقها الله بها في
الصباح، تخرج بعضاً منها وتناولها لابنها.

- خد ياابني ربنا يفتحها ف وشك وتلاقى شغل.

إعانة مادية ودعوة أمية يومية، عندما يمر ابنها عليها كل
صباح منذ شهور: «ربنا يفتحها ف وشك وتلقى شغل»، يتمنى
الأبن أن لو يستجاب لدعوة أمه مرة وينصلح شأنه وحاله، قد
ملّ الدعاء، لطالما دعت له بهذه الدعوة ولكن أبواب السماء
مغلقة، هكذا يظن في نفسه.

هذا هو نبيل ابن (أم نبيل) يعد من العمر ثمانية وعشرين
سنة- لا عاما- وزنه أقل بكثير من سنه، قوامه يميل للقصر،
نحيف، لون بشرته أدمية، وجهه مستدير أملس، البشلة في

خده الأيسر علامة الجودة للمناطق العشوائية، عيناه سوداوتان،
حاجبآه ضعيفان، شعره أكرت، مدخن رغم أنه لا يملك ثمن علبة
السجائر الصيني.

- أحلى صباح يا اسطى.

- إيه يانبيل، لسه ملقتش شغل يا زميلى؟

- ادينى قاعد على القهوة مستنى الفرج وأخواته!!

- باقول لك يا صاحبي، ما تشوف المعلم فريد واطلع معاه فى المحارة.

- يا زميلى، أنت عارف أنا مليش فى المعمار؛ ما بقدرش

عليه والحساسية اللى عندي، والمعمار يوم شغل وعشرة لأ!!

- يابرنس أطلع على ما تفرج بمكان تفتح فيه عيادة ولا تلاقى

الشركة اللى تشتغل فيها مدير يا مدير.

- انت بتهزر؟!

ضحكًا بفتور وسخرية، وبفلسفة موجوع منذ أن خلق رد:

- لو ماهزرناش هنموت يا صاحبي فى الزمن الأغبر دا، البلد

دى دفنانا بالحيا وياريت زرعت على تربتنا صبار عشان تفتكرنا

ولا حد يرشنا بشوية مية!

فى المساء بحث نبيل عن المعلم فريد؛ ليسأله عن عمل معه

فى المعمار.

فى حارة لا تسمح لاثنين أن يمرا معا كان يتسلم من أحدهم

«البكتة» ويغمزه بالعوض المادى، شاب فى الثلاثينات أسمر

البشرة شعره خفيف عنثيل المنطقة، كما تنعته سمية ملكة جمال
سوق الخضار.

- ازيك يا معلّم؟

- ازيك يا نبيل، حلو أنى قابلتك تيجى الفرحة بتاع الواد
(دبشة) الدخان والبيرة والتموين هيبقوا بالكوريك، شايف أنا
جايب له إيه (وأشار للبكتة).

نبيل: باقول لك ياسطى ...

- قول يا نبيل

- ماماعكش يوميتين شغل؟

- عايز تطلع الشعل يا نبيل؟

- آه ياسطى الحالة جبس عالآخر، !!

- بس أنت صحتك على قدك؛ بتتعب من شيل المونة ومهنتنا
عايز لا مؤخذة بغال عشان يقدرنا يشتغلوا فيها وأنت يا نبيل زى
البرص الجعان ماتزعلش مني.

- أعمل إيه ياسطى أقعد ونصرف أنا وامى العيانة بالكام
بريزة اللي بتبيع بيهم الجرجير والبصل !!

- خلاص يا نبيل اطلع معايا الصبح

- ماشى ياسطى.

- نبيل، بكرة ماتتأخرش هنمشى بدرى ! ملوحًا إليه بسبابته
يحذره من التأخير.

- طب هات خمسين جنيه أسيبها لأمي.

- هي مهيتك كام يعنى عشان تاخد خمسين جنيه دى الوقت قبل ما تطلع؟! مامعيش غير عشرين جنيه.

ودس يده فى محفظته واغتصب عن رغبته منها كل ما تملك ورقة العشرين جنيهها وأعطاه إياها.

نبيل يتلاعب بعينه :

- طب ما تجيب لفة دخان ياسطى ، الطاسة عايمة وعايضة أتقلها

لما تيجى الفرح بالليل هاغرقك يلا ، نتقابل فى مهرجان

«دبشة»

«لو ما هزرناش هـنموت يا صاحبي في الزمن الأغر دا؛
البلد دي دفنانا بالحيا وياريت زرعت على تربتنا صبار
عشان تفتكرنا، ولا حد يرشنا بشوية مية!»

التدبير الخفى

فى اليوم الثالث من زيارة هذا الرجل الأسود للأستاذ (سالم) مدير الترسانة. ها هو المشهد يتكرر مرة أخرى يلمح الشيخ سلامة الهالة السوداء تقترب من بعيد، تيقن الشيخ سلامة أنه (الباشا).

نزل أحدهم كالعادة من الباب الأمامى للسيارة وفتح الباب الخلفى لينزل الباشا، لكن هذه المرة ثمة أمور جديدة، البنية البشرية تغيرت، هذه بنية بشرية أيضا لكنها ليست مصارع الثيران الذى أتى فى المرة السابقة، وهناك شخص آخر يصطحبه الباشا، إنهم ثلاثة هذه المرة، ولعل فضول الترقب عند الشيخ سلامة أثار عنده تساؤلات وأراد الإجابة عليها. ماذا عن مصارع الثيران، أين ذهب، هل صارع الثيران فصرعته وهلك؟

وما هذا الثالث ولماذا لم يغير الباشا بدلته السوداء بأخرى غير السوداء؟

كلها تساؤلات حدّث بها نفسه الشيخ سلامة بسخرية وأراد الإجابة عليها، وكاد فى عقله أن يستوقف الباشا ليسأله، لكنه رأى من الأفضل والأسلم أن يجيب هو عليها - خيرا له ولأهله جميعاً - كم هو شجاع هذا الرجل (الشيخ سلامة).

الثلاثة فى مكتب مدير الترسانة كلمات النقاش والحوار متناثرة بين الأستاذ (سالم) و (الباشا) والوافد الجديد.

أستاذ (سالم) يجلس على كرسى مكتبه، الوافد شخص فى العقد الرابع، يجلس على المكتب.

الوافد بهدوء مستفز ونبرة تثير وتهيج الغضب:

- يا أستاذ سالم، نسبة الخطورة لا تتجاوز ٢٠٪ وأنا شايف إننا نقلل من العدد على المركب وما فيش قلق.

أستاذ سالم مانعًا جنود غضبه من الأندفاع محاولًا إظهار الهدوء:

- اقتراحك يا سيّدى مش حل، أنا باقول لحضرتك دى مجازفة بأرواح بشر، بشر مش حمولة بضاعة هى!

الباشا يخرج لفافته من فيه، متسائلًا:

- إيه حلوك يا (سالم) بيه؟

شعر الأستاذ (سالم) بلهجة السخرية فرد فى تأفف:

- الحلول عندكم يا باشا، مش أنتم بتحلوا أى حاجة؟

الوافد:

- طب إيه العطل اللي فى المحرك يا أستاذ (سالم)؟

يرد الأستاذ (سالم) بامتعاض:

- حضرتك ممكن تقعد مع فنى الصيانة ويعرفك.

الوافد من أجل إنهاء كلام فارغ، حسب ظنه مع أستاذ سالم:

- خلاص ماشى هنشوف الموضوع دا ومحلولة ماتقلقش.

قال جملته وهو يهيم بالقيام لينهى لقاءه، خرج الأثنان من مكتب الأستاذ (سالم) واستقلا العربية وهم يتبادلان الكلام بينهما.

الوافد:

- أنا هاجى أقعد مع فنى الصيانة واقنعه أنه يعالج مشاكل المحرك لحد بس المركب ما تمشى بعيد عن حدودنا، شكله المحترم دا (يقصد سالم) هيعمل فيه مدير بجد وممكن يسبب قلق لمعاليك.

الباشا:

- هو جديد لسه متعين من شهرين وأنا هاعرف إزاي أبعده بشوشرته وضميره .. متقلقش انت اعمل اللي انت قلت عليه وسيب لى الباقي.

الوافد:

- طب سيادة النائب يعرف حاجة عن الموضوع؟

- مالوش فى الوش دا، أنا للى باخلص فى كل حاجة

القلق احتدم فى صدر الأستاذ (سالم) بعد هذه الزيارة، وتيقن أنه لن يستطيع استخدام صلاحياته كمدير للترسانة، وأنه مجرد لاشيء؛ نبرة الباشا أوحى له بهذا. قادته خطواته إلى الشاطئ وصعد ظهر المركب محل القلق والجدال، يتجول على ظهر المركب وهو أسير صراع داخلى وشعور بالعجز والحيرة وحزنه واساه على المصير المتوقع لهذه المركب وركابها فى الحالة

اليائسة، نشط ذهنه وأتاه بفكرة أعادت له توازنه العقلى، إنها فكرة أن يضخم من أسباب أعطال المحرك بحيث يجبرهم على عدم قيامها بالرحلة، يالها من فكرة رائعة يتحمس لها ويساعد عقله على تفعيلها ذهنياً ومناقشتها بصورة أدق فى عقله حتى لا يقع فى خطأ محتمل.

رأى أن الفكرة يجب أن يناقشها مع عقله جيداً فراح يجلس على مقعده لينظر فى فكرته، خيوط تتشابك وافكار تتزاحم، وصورة تتبلور وحلول تتجسد فى صلب الفكرة انتهى نقاشها مع عقله بالأتى:

أن يقوم بتوسيع ثغرات الخطر دون ترك ما يشعر أحداً أن هذا بفعل فاعل. انتظر حتى آب عمال وموظفو الترسانة إلى منازلهم وهرع إلى المركب نفذ فكرته، لم يحتاج فى التنفيذ إلا إلى مفك صليبية ومطرقة، وبالفعل شرع فى تنفيذها بحماس المنقذ.

«الحمد لله نفذت الفكرة من غير ما حد يعرف».

ينظر للمركب وكأنه يقول له: «لقد أنقذتك من مصير بائس، لا يمكن لك أن تخوض فى المتوسط أكثر من كيلومترات وهذا ما سأبرهن عليه على عدم قيام الرحلة». يعتقد أنه كتب للمركب عمراً جديداً وأمداً طويلاً وأنه فعل الصواب!!

فى صباح اليوم الثالث من الزيارة يتجه إلى مكتبه، يسلك يده فى جيبه يخرج مفتاح المكتب يولجه فى الباب يشعر أن الباب فتح من قبل!! زج الباب، دلف إلى الداخل، تتفاجأ عيناه بأحدهم يستعمر مكانه ويتراقص جالساً بكرسيه المتحرك.

-انت مين حضرتك؟ سأل المستعمر الخارجى لمكتبه

يستدير الجالس مكانه ؛ كان ظهره مقابلا له ، يجيب بكل استفزاز وهو يعبث بالقلم على فمه

- الباشا يا ريس ، آه قصدى يا من كنت ريس ادانى تليفون إمبراح وكلفنى بمهامك عشان يريحك شوية.

يستفزه رده فيتقدم إليه بخطوات ملوحا إليه بذراعه الأيمن :

- إنت مين؟ وجى ليه وباشا إيه؟!

يرد باستفزاز على الأستاذ (سالم) :

- الباشا ببيلغك إن الحسابات مجهزة لك شيك باقى حسابك ومع السلامة.

كلمات هذا المستفز نزلت عليه كالصواعق الكهربائية ، حدث ما لم يتوقع ؛ خر هامدا على المقعد الذى كان يستقبل عليه ضيوفه وهذا المستفز يجلس على كرسيه المتحرك أنتزعت منه صلاحياته الإدارية بل حدث إنقلاب عليه هو الآن خارج منطقة التأثير والفعل...!

حاول المستفز التخلص من قبضة الأستاذ (سالم) وانتزع عنق قميصه من بين أنياب أصابعه وأنجاه من التمزق ولم يكن ردة فعله بعد هذا إلا كلمات حادة مضمونها ، طرد الأستاذ (سالم) من المكتب بل من الإسكندرية كلها فى زهول واندهاش لم رآه منه وهو يتهته بكلمات مع نفسه .

خرج الأستاذ (سالم) من مكتبه - سابقاً - مطروداً كالمجنون لا يدرى إلى أين يذهب ، أم ماذا يفعل؟
يضرب أخماسا فى أسداس متسائلا:
- أعمل إيه؟ ولا إيه اللى عملته؟!!

ينتجه حيث لا يدرى، تحثه خطاه إلى الطريق العام، على جانب الطريق الأيمن ينتظر هدوء العربات ليعبر للجانب الآخر من الطريق، يريد أن يعبر لكن العربات تتوالى وحركة السيارات سريعة، يترقب الطريق بعينيه وعقله شارد لا يتحكم فى إشارات عينيه.

يتهته لسانه : أنا عملت إيه ، أعمل إيه؟

يلمح الطريق، هداً من ركض الأطنارات على رصيفه بيد عربية وحيدة قادمة من بعيد، رأى أن فرصة العبور سنحت فأخذ يجر قدميه ليعبر الطريق.

- « حاسب حاسب » لاحولاً ولا قوة إلا بالله .»

ينزل من سيارته مُفزعاً وأعصابه لا يتمالكها.

- والله هو اللى تردد وهو بيعدي.

قالها لرجلين هرعاً إليه من قريب وقالا:

- يلا ناخده بسرعة على المستشفى يلا يلا.

المستشفى هذه الكلمة زادتة فزعاً على فزع؛ هو يدرك معناها فى مثل هذه الظروف يعنى محضر وتحقيق، وأتهام، وقتل خطأ،

إن لا قدرالله حدث المتوقع ، أقل ما فى الأمر تعويض إن نجا ،
تعويض « لا أنا مامعيش غير شوية الفلوس اللي هدفعمهم للسفر
يارب أسترها » كان يتحدث مع نفسه بهذا قبل أن يدخل بعربته
من بوابة الطوارئ للمستشفى. رجلان صحباه إلى المستشفى ليسعفا
المصاب الذى صدمه بعربته انزلآه من عربته ، أتى الممرضون
يرتدون الثياب الأبيض الملائكي ، وضعوه على الحاملة الطبية
(الترول) الدم ينزف من رأسه وأنفه ، أدخلوه إلى القبو المؤدى
لغرفة العمليات وصاح أحدهم :

– حادثة حادثة ، نادِ على الدكتور نشأت بسرعة.

الفرح

«أنا شارب سيجارة بنى بنى بنى وحاسس إنى دماغى بتكلنى
كلنى كلنى».

سُدَّ الشارع من الثالثة ظهراً حتى مطلع الفجر، نصبت الأعمدة
الخشبية لتشتبك بها حبال الأضواء وكُسى الشارع بفراشة الحاج (أبو فرحة) لتوارى كسوة هذه الفراشة جدران الشارع الصدئة. فرح
الواد (دبشة).

«قاعد فى الحارة باسقط باسقط باسقط».

فى أول الشارع يستند على حائط يحوط به منضدة خشبية
تأخذ شكل المربع ناقص ضلع ، مكسوة بغطاء قماش أبيض - يبدو
أن فرح «دبشة» سيكون شيك وراقى - على يمينه فوق المنضدة
صوان ستانلستيل مستديرة موضوع عليها أكواب وفناجين ، وعلى
يساره أشياء مرصوفة على هيئة الجنود المتأهبة لإطلاق النار،
إنها زجاجات الشيشة ، أمامه على المنضدة فراغ متسع لاستقبال
الأكواب الفارغة ، تحت المنضدة الشعلة يربط بينها وبين أسطوانة
الغاز حبل المودة والتواصل النفطى ، وعليها غلاية من الحجم

الكبير يصنع مشروباً يقال إنه الشاي، وهناك في المقابل في آخر الشارع المطرب الألكتروني الذي يغني كل الأغاني ويحيي ليال الأفراح والملاح الشعبية، إنه (الدى جي) أمامه حلقة من الشباب الخرع يتراقصون بالسنج والمطاوى، ولم يعبأوا ببنطلونهم الذي يهرب من وسطهم

«والغسيل عمال ينقط ينقط ينقط...»

يتوسط الشارع الراعى الرسمى للمزاج المصري، أمامه طست غسيل زوجته، استعاره منها عنوة؛ ليضع فيه الماء الثلج ليحفظ زجاجات الخمر والبيرة من حرارة أنفاس البانجو والحشيش المعبئة للمكان « أنا شارب ازازة استلا وعامل دماغي منافلة..كوكا كوكا، يا عم ولع، يا سيدى ولع» تزامنت كلمات الأغنية مع صوت أحد أقارب العريس وهو يلقي بعرموسى بانجوأمام لحيحة قصيرة: يا عم والله انت فى فرح.

فرد الشيخ محسن في ضحر حاول موارته ببسمة مصنعة مجامة لصاحب الفرح:

– يا عم أنت متشكرين مالناش فى الحاجات دى.

«يا عم يروق يا سيدى روق» هؤلاء فى مثل هذا الفرح الشعبى كالوردة البيضاء وسط نبات النجيل، الكل بيعفروا وهم بيستغفروا لذنب لم يقترفوه، هناك قرب (الدى جي)، نبيل ينفث فى لفافة محشوة من فضلة خيير(٣٣) يغمز لأحدهم كان يمر كمراقب الأمتحانات بنظراته المتفحصة فى وجوه الحضور: إيه مافيش حاجة زرقا ولا حمرا؟

يرد الغمزة بغمزة ومعها يده تلقى بالحباية فى حجر نبيل،
نبيل: قشطة عليك وعلى اللي حواليك

بعدها عمّر نبيل الطاسة بإزاة ستلا وخبورين وحبس وراءهم
حباية حمرا قام مترنحا يسأل الحارات الضيقة عن بيتهم فى الثلث
الأخير من الليل. آوى نبيل لركن يفرغ حوضا من حمض ضاقت به
مثانته حملاً، آهات وصرخات تثير الغريزة، كان ذلك ضجيج اللذة.
نبيل:

- الواد لبانة تلاقيه عاكش البطة جوة .. لما أشوف كدا مين
معاه.

ومن فرجة فى مصرع الشباك الذى أسود من العوامل البيئية،
تسربت أشارات نبيل البصرية إلى الداخل وضعية حيوانية مثيرة.
نبيل:

- يابن الكلب يا لبانة: الوزة الكبيرة لالا انت فجرت؟

ثم مال على حجر ورشق الشباك وتلاشى ركضا وهو يحاول
كتم ضحكاته الهستيرية.

عاد نبيل إلى بيته لينام حتى يستيقظ مبكرا فى الساعة
الخامسة صباحا، وقبل أن تسلب الشمس ظلمة الليل المحتضر،
تثأب نبيل بعد أن أيقظته أمه بنداؤها المتكررة عليه:

- قووم يا نبيل، قوم ربنا يفتحها فى وشك قوم ياابنى النهار
شقشق، كان هذا صوت أمه يطربه بلحن مزعج لنومته الغاطة.

نزل نبيل من على الكنبه والكسل يحط بأعضائه ، قاومه نبيل
برشاقات مياه على وجه مسحها بمنشفة خشنة بالية كانت
متهدلة على باب الحمام ، ثم خرج وفى يده حقيبة بلاستيكية
تحوى ملابس الشغل : قميصا مهترئا ، وبنطالون عتيقا ، وجزمة
بلاستيك ، قبل أن يصل إلى ناصية الشارع حيث التجمع العمالي
والعربة التى ستقلهم لميدان العمل (القاهرة الجديدة) أرض البهوات
التى لا يدخلها نبيل وأمثاله إلا للعمل فيها فحسب .

قبل أن يصل بأمطار كان صوت (المعلم فريد) يشد خطواته
استعجالاً .

يلا يانبييل : مش قولتلك قووم بدري ، إمشى شوية ، اتحرك
يلا هنمشى

عربة ربع نقل صنعها الجواجة لغير ما يفعله مقالو تلك
المنطقة وغيرها من أرباب طائفة المعمار ، صنعها الخواجة لشحن
الأخشاب والكراكيب أو المواشى والخضار ، لكن هؤلاء يشحنون
بها عمالهم الأدميين الذين كرمهم الأله لكنهم يهينون أنفسهم
بركبوهم إياها .

كان نبيل آخر المشحونين فى صندوق العربة ليكتمل عدد
المشحونين خمسة وعشرين نفرا !! ولا تسأل كيف ركبوا فهذا من
إبداعات المصريين ، تكتظ جوانب السيارة بأعداد الحمولة الأدمية
ولا تكاد إطاراتها تتحرك ؛ فقد رسوا رسا من قبل المقاتل . لا
أدرى أبهذا يوفر أجرة عربة أخرى حفاظا على ثروته ، أم أنه
يحافظ على الوحدة العمالية؟! !

المقاول سائلًا المشحونين :

- كله ركب؟! فى حد ناقص؟

شردمة من العمال :

- لأ يا معلم، كل تمام مافيش حد ناقص يلا وبالراحة ما

تجرى بالعربية احنا ماشين على برقع جنيه هوا.

ركب المقاول فى الكبينة بجوار السائق وانطلقت السيارة

مشحونة بالعمال، على الطريق الدائرى فى مدخل الجولف،

كانت ثمة حادثة شلت حركة مرور الطريق؛ فتوقفت سيارة

العمال التى حشر فيها نبيل. نزل المقاول وابتعد أمتارا قبل

أن ينادى للسائق أن أركن جانبًا، حادثة عمال، نزلوا جميعا

من السيارة وقلوبهم ترتجف من النبأ، منهم من يهرع ومنهم

من يهرول؛ ليكتشفوا الحادثة، ومنهم من يدعو سرا أن لا يرى

أخاه فى الحادثة، ومنهم من يدعو إلا يرى أباه، ومنهم من

يدعو إلا يرى صديقه، ومنهم ومنهم... اقتربوا من مكان الحادثة

وملامحهم يكسوها التوتر والخوف، يلهثون كما لو أنهم أتوا من

هناك من بلدتهم راجلين.

«لا حول ولا قوة إلا بالله لا حول ولا قوة إلا بالله» «ربنا يسترها»

كان بيجرى ليه؟

من امتى الحادثة؟

حد اتصل بالأسعاف؟!!

وأنين وتوجع وبكاء..

كانت هذه الأصوات تتناثر على الدائرى كما تناثرت أجساد أولئك الذين انقلبت سيارتهم وهم ذاهبون للعمل مثل نبيل.

بدأ رفقاء نبيل يللمون أمثالهم المتناثرين على الرصيف كما تلمم الذبائح فى السلخانة، مابين جريح ومصاب، ومن رحل عن الحياة، هذا يمسك ظهره ويتألم، وذاك لا يرى ملامحه من لطح الدماء، وآخر يلتقط أنفاسه الأخيرة بعدما ارتطمت جمجته بالأسفلت، تغير لون الرصيف بعدما خُصب بدماء العمال، والأسعافات لا تأتى بجدوى رغم هول المشهد وفضاعته.

أجساد متناثرة على أسفلت الدائرى شلت حركته من الجهة اليمنى، وكعادة الدولة تقوم بدورها وترسل سيارات الأسعاف - متأخراً- بعد إلا ستغاثة بها، شحن المصابون والجرحى فى عربات الأسعاف. ولعل هذا الشحن ارقى مما كانوا فيه قبل الحادثة، رغم أنهم ركبوا فى الأسعاف دون إرادتهم، إلا أنها أرقى آدمية من الربع نقل. من بين سيارات الأسعاف حملت واحدة فى أحشائها صبياً لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره، يبدو على حالته أن بظهره كسور قد حملوه فى السيارة منكفئاً على وجهه مسجى على الحاملة الطبية، صبى بظهره كسور

ليته مات!، هكذا هو يتنمى وأشفق المشفقين عليه؛ الموت أرحم من العجز؛ لن يملك المال ليعالج عجزه ولا يرضى أن يعيش مرارة أيامه عالية، طريح سرير أو مُقعد كرسى متحرك، وقد لا يستطيع شراء هذا الكرسى، فالموت أفضل!

بعد رحيل الأسعاف للمم العمال أنفسهم بعدما عادت حركة السير للطريق الدائرى ورسوا أنفسهم ثانية فى عربتهم. تحركت السيارات ودهست رفات دمء المصابين الذى رمقه العمال فى مشهد كانوا من الممكن أن يكونوا هم أبطاله وغيرهم يلملمونهم، ولعل هواجسهم تخبرهم أن الكرة عليهم. مصير محتمل صباحا ومساءً الكل يخشاه ولا مفر ولا نجاة!! .

«احنا راكبين على برقع جنیه هوا»

ضحية قضية (١)

مع رحيل الشمس متخفية وراء الأبنية العالية، أصفراً قرصها وهي تودع السماء ببصمات قزحية كان هذا الكلبوظ المشاغب يفرقع بالونات ويعبث بالهدايا ويثير شغبه المعهود لديه.. المفطور عليه. أصوات أنثوية ما بين ضحك وكلام وثرثرة فى الفاضى والملاّن، البلونات التى فرّقت والهدايا التى فتشت - رغماً عن الكل- كانت من طقوسات الأحتفالية المنزلية، وتلك الأصوات أصوات صويحاتها اللائى جئن ليباركن لها ويفرحن معها بنجاحها. أتممت بهذا النجاح التعليم الجامعى بتقدير جيد، وما هى سوى أيام وتحوز شهادة الليسانس من كلية الأداب قسم التاريخ جامعة حلوان لتزين بها حائط الصالة. رجاء هذه الأنثى التى راهنت أمها الزمن على التزامها وحمایتها من مغريات ومغراته الشبابية ونزوات المراهقة فأربحتها ابنتها الرهان. استكفت من الحياة بسبعة وعشرين عاماً، وهى الآن فى الثالثة والعشرين فتاة ممشوقة القد، رشيقة القوام، محمرة الوجنتين والخد، عيناها لؤلؤتان مخزرتان بلون أزرق محروستان بسهام رموش تصيب من ينظر لها بالصباية والوجد، فرعاء بيضاء يشع بياضها نورا بحمرة فرنسية، حتى تكهنت إحدى جاراتهم. إن جمالها هذا يرجع لتزواج جدتها

لأمها بأحد جنود الحملة الفرنسية إبان حملتهم على مصر،
حورية مقصورة فى خيام الأدب والألتزام.

وسط الهرج والمرج الأنثوى، وتراشق الفتيات بالضحكات
التي تذيب جليد الأطلسى، كانت رجاء تحاول فك شيفرات
نقش الدجاج لرسالة حملتها إليها إحدى صوحبياتها، وبراعتها
اللغوية، استطاعت فهم محتوى الرسالة وأنها جواب غرامى، باح
فيه صاحبه وأفصح بمشاعر نعتتها رجاء بأنفلونزا المراهقة سرعان
ما يشفى منها صاحبها. وبنظرة تنوء بالأنكار لفعلة صديقتها
دست لها الورقة فى شعرها بعدما طوتها بإحكام:

– قولى لابن خالك عيب انا باحترمه، واعقلى اعقلى.

تهمس بجوارها حتى لا تسمعها أم صديقتها فتوبخها بطريقتها
الريفية:

– إيه يا بنت الكآبة دى، ! كدا لا (أنتيم) ولا (حبيب)
خارجة عن نظام الشلة، ليه يابنتى انتِ هتترهبنى ولا إيه؟!
يجوس فى خدر الفتيات وتعلو الشفاه- المتلخخة بالحلوى –
بسمه قتل عبثه براءتها

ترسم على بلونة نجت من نازية الصبي، وترد:

– آه هاترهبن، مش أفضل فى زمنا ده!

صرخت بصوت عال كأنها فقدت عذريتها فأفزعت صديقتها،
ليأتى صوت أم رجاء من الصالة مخترقا حواجز الجدران، عابرا
باب الغرفة:

- إيه يا بنات، إيه اللي حصل؟

ترد رجاء ثائرة:

- ابنك يا ماما، فزع نيللي!

الصبي قام بفرقة البلونة تحت أذنها منتهزا سهو الفتاة ليفعل فعلته ويفر هاربا. أبى ألا ينتهى اليوم دون وضع لمساته العبثية، التى تترك أثرا بالغا فى الأحداث.

فى اليوم التالى للاحتفالية تذهب رجاء لمكتب فى وسط البلد فى مقابلة (عمل) وظيفة سكرتيرة قرأت عنها فى جريدة الوسيط، لكنها لعدم خبرتها لم تحظَ بالوظيفة، وفى أثناء انتظارها فى مكتب التوظيف تعرّفت على فتاة جاءت مثلها تطلب العمل فانسابتا فى الحديث والكلام تسلية للوقت، تعرفتا على بعضهما واستأنستا الحديث لقرب سكنهما، فالأثنتان يقطنان حى المعصرة، وفى تعاقبهما بالحديث عن أحوال بعضهما وتعقيبهما على الوظيفة التى لم ينلنها نصحتها رفيقة يومها بزيارة مكتبة المعادى للاطلاع؛ وحتى يتسنى لهما رؤية كل منهما الأخرى، رحبت رجاء بعرضها لميلها الأدبى وفضولها على المعرفة والعلم، ومن حينها بدأت رجاء تتردد بصورة منتظمة على المكتبة، وسأيرت أحواما أربع بشغف القراءة والأطلاع وتناست مطلبها المهنى وأغفلت أمر الوظيفة وانغمست فى طيات الكتب وانكبت عليها وهامت فى سرد القصص والروايات، لتبدأ من حين لقائها بتلك الفتاة حياة لا تدرى ما ستؤول إليه من مقادير ومصائر متخفية فى ثياب المجهول والمستقبل.

* * *

ذكري (٢)

بعد شهر من وفاة الشيخ «هلال»

على البساط العائلي حول المائدة الأسرية كان يلتف محمود وعن يمينه أبوها ومقابله أمه يتناولون وجبة العشاء المكونة من الأرز وقطع السمك التي تغطي وجه الطبق وأرغفة الخبز الساخن، فرغوا من عشايتهم ورفعت المائدة بعدما صارت خوانا وعبارات الحمد تليت على الختام.

بصوتها الأنثوى الذى طبّعه بحر الساحل، فتارة هادئًا وتارة هائجًا نائراً:

- نعمل لكم شاي؟

يرد أبو محمود وهو يستند على الوسادة:

- اعملى يا أم محمود .

وهى قاصدة المطبخ:

- حاضر.

يقترّب محمود من أبيه بلطافة مكشوفة - ولو كان يدخن السجائر لأخرج العلبة وعزم على والده بواحدة:

- إيه إصة محمد ابن الشيخ هلال؟ أنت قلت هنعكوها لك
ياباى؟!!

نظر إليه ورد:

- أيوووه، أنا مش عارف الموضوع دا معلق معاك ليه؟ عايز
تعرفو إيه يا حودة؟

- أحكى لى على الأصة كلها، عايز نعرفو كلة حاجة عنه.

- ماشى وأحنا بنشربوا الشاى.

دقائق وعادات أم محمود بصنية الشاى وضعتها وزهبت
للداخل، لعل أمرا فى المطبخ يستدعيها، رفع كوب الشاى إلى
فيه وارتشف منه، لا رشف رشفةً، كأنه يغيظ أحدهم هكذا
يحب أن يشرب الشاى.

أبو محمود:

- فى يوم يا حودة أبوك كان قاعد مع جدك الشيخ هلال -
الله يرحمه - فى الجامع بين المغربية والعشا، لاحظت أن الشيخ
مهموم مش زى ما بنشوفوه سألته: مالك ياعم هلال؟

- سند جدك الشيخ ظهره على عمود الجامع وقال لى: عارف
يا أبو محمود الليلة دى بتفكرنى بابنى محمد. عين الحاكى
كانت شاردة مع الماضى لكن مع تلك الجملة نظر لابنه محمود
وأنه يشعر بخوف تجاهه، ثم أكمل الشيخ قال لى فى الليلة
دى جى محمد وفرّحه بنتيجة الثانوية وانه جاب ٩٩٪ الشيخ كان
بيقول أن محمد كان شاطر.. كان شاطر لدرجة أنه كان بيذاكر

لزمائله فى المدرسة، قال لى انه كان شغوف قوى بالتعليم وكان
بيحب العلوم حتى أنه فى اجازة الصيف اخترع محرك بيشتغل
بالبخار، البخار ذكره بالشاى فشفط شفطتين لأن الشاى أصابته
البرودة، عمل الأختراع وعرضه على المدرسة و المدرسة كرمته
وعملت له حفلة وبعثت الأختراع للوزارة بعث قاطعه محمود:
تلاقى الوزارة أدت محمد فلوس كتيرة على كدا؟

ضحك متحسراً ورد:

- جدك قال لى الوزارة ماردتش ولا حتى بجواب، بعد كدا
الشيخ هلال نصح محمد أنه يركز فى المذاكرة وما يشتتت ذهنه
فى الأختراعات، والمذاكرة أهم، محمد انصاع لنصيحة أبوه وركز
فى المذاكرة، سمع كلام أبوه يا حودة ها. (قالها لمحمود وهو
بيربت على كتفه) ولما جاب مجموع على فى الثانوية جدك
هلال الح عليه واقاربه يدخل طب عشان يطلع دكتور قد الدنيا
ويمشوا يفتخروا بيه بين الخلق، بس محمد كان عايز يخشو
كلية العلوم عشان شايف دماغه فيها وهيخترع فيها، محمود
يقول لهم: أنا عايز نخشو العلوم وهما يقولو كلية الطب تطلعو
دكتور حد يطولو دا، محمد سمع كلامهم ودخل كلية الطب
عشان يطلع دكتور ويمشوا يفتخروا بيه بين الخلق، وعشان هو
ما بيحبش الكلية ما نجحش اول سنة وحوّل لكلية العلوم،
طلع صوت محمود كنبته النجيلة بين عيدان الذرة وقال: كلية
الأختراعات، رد والده: جدك هلال قال لى أن محمد قال له
أنه هيتفوقو فيها ويبقى أحسن م الدكتور ثم أوما بسبابة اليمنى
وقال: شايف السبحة اللى متعلقة على صورة جدك هلال دى؟

فى التو نظر محمود للصورة والمسبحة، الصورة مبرّوزة (موضوعة فى إطار خشبى زجاجى) محمود من وضعها فى هذا الأطار تخليد ووفاءً لذكرى الشيخ، الصورة كانت فى مقابله مباشرة على الحائط بجوار ساعة الحائط .

– أنت عارف يامحمود ليه السبحة دىّ كانت غالية على جدك الشيخ هلال؟ ولما اتقطعت هو بنفسه عقدها تانى ومارضيش نجبيولو وحدها غيرها؟

محمود: ليه؟

رد وقطرات الدموع تسبق حروفه إلى خده: عشان محمد هو اللى اشتراها لجدك فى أول يوم راح فيه كلية العلوم، عدى على الحسين واشتراها له، ثم مسح دموعه قبل أن تداعب عين ابنه محمود الذى ظل عاكفا نظره على صورة الشيخ كأنه هو الذى يكلمه.

– الهدية يابنى مش بئمنها ولا قيمتها، الهدية بقيمة الهادى والمهدى، سبحة جدك «هلال» مكنش تمنها غالى ولافريدة من نوعها بس كانت هدية من شخص غالى، قالها ولم يستطع سد مجرى الدموع الذى أغرق وجنتيه – هربت الدموع بلا استئذان – فقد تذكر مشهد بكاء الحاج «هلال» كم كان مشهد يفيض بالدموع!

قطعت الحديث بجملتها: سيب أبوك يامحمود، الشاى برد يا أبو محمود، هى تدرى ما تحمله هذه القصة من مأسى وأحزان؛ أبو محمود قد حكاها سابقا.

يكفكف دموعه التى بللت خده وهو يحتسى الشاى ! دخل محمود غرفته ومازالت عيناها تنظر للصورة والمسبح.

أشبه أحياء (الفقر ٣)

دخلت سيارتهم التجمع الخامس وقفت فى ساحة موقع
إنشاءات عبارة عن هياكل خرسانية لبعض الفيّلات والقصور، التى
تبنى لأصحاب الثراء والسلطة فى هذا البلد الفقير أغلبه. !!
الرمال والحصى .. والزلط الأسمنت، الحديد، الخشب، السقالات،
براميل المياه، كناتين تبيع شيئاً يسمى أكل يسكت به العمال
جوعهم الكافر، كل هذه الأشياء هى سكان الموقع مؤقتاً مازال
الموقع تحت الأنشاء والتعمير.

يوزع المقاول العمال على مواقع العمل:

أنت فيلا ٧٣ خمّر مونتك وبيّض فى الصالة،

وانت خد خمسة معاك وروح نضف فيلا ٦٦

وانت اشتغل فى ارضية حمام فيلا ٥٥ هناك كل حاجة كراتين

السيرامك تحت الفيلا، خلى العامل يطلعها لك.

وانت روح لف الدروة الطوب متشون عليها، وانت شون الألفين

طوبة على الدور الثانى، وانت، وانت..، وكل شخص يوزع يتم

له توجيه: اتجدعن شوية وشيد حيلك، امبارح انت عجزت،

وبعدما يفرغ من توزيع العمال وتوجيههم يركن إلى مكان لا تراه فيه الشمس وينام حتى يفرغ العمال من عملهم.

نبيل جاء توزيعه مع المعلم فريد صانع المحارة رجل فى الثلاثين بشرته سوداء تضى على ملامحه وسامة مع ذقنه الخفيفة وشاربه القصير:

- كنت هتأخرنا النهاردة يا نبيل.

- ماعلهش يا معلم انت عارف انى مايطلعش الشغل من زمان.

- شد حيلك واشتغل عشان أمك العيانة.

- والله يالاسطى باتعب من المونة الحساسة بقى، وأنت شايف باعافر، هنخمر المونة فين؟

- فى الأوضة الشمال اللى فى وش المطبخ، (ثم ببلادة واستخفاف)هتقدر تشيل الأسمنت يا نبيل؟

يرد بوجوم وتكدر، فقد حملَ همَّ حمل الشيكاره قبل أن يحملها:

- أدخل كم شيكارة؟

- أربعة اصطباحة دى الوقت وانا جاى أشيل معاك. قالها نبيل دون مراعاة لعافيته المنعمه.

بعناء شديد نقل نبيل عبوات الأسمنت من الدور السفلى وأفرغه على صندوق رمل وبدأ بتقليب الأسمنت والرمل معاً بالكوريك وهو يفعل ذلك:

- شكل الحيطان دىً بايظه وهتاخذ مونة كتير يا اسطى فى المحارة؟
ينفت ما يكون مزيجاً فعلاً مع غبار الأسمنت فى سد رنتيه
ويصدأ مسورة حلقومه :

- لأ يا نبيل هما شيكارتين تانى ولا تلاتة وخالص بس عايزين
نتجدعن، المعلم بيخصم للى بيعجز فى الشغل ما بيرحمش، شد
حيلك معايا.

جهزا الملاط فكأنهما يقفان أمام مطحنة دقيق؛ غبار الأسمنت
كسا وجههما وسد حلقوهما، وهو يسعل ويبصق تراباً:
- يلا يا نبيل نفطرهاات ورقة شيكارة نفرش عليها الأكل
وولع خشبتين على غلاية الشاي.

وضعت مائدة الإفطار على ورقة كانت من قبل موضوعا فى
جوفها أسمنت ضار بالصحة. المائدة عبارة عن كيس فول بارد
وأقراص طعمية تشبعت بالزيت الأصفر، وأصابع بطاطس أسودت
من القلي. الزيت طغا على المائدة، مائدة زيتية بنكهة الأسمنت.
أكلا وشربا الشاي وقاما للعمل. صندوق من المونة (الملاط)
ينتظرهما كما ينتظر السُّباح الحمامارَ.

«بسم الله». قالها المعلم بلا قصد. ناوله نبيل طالوش المونة
ليطمه على وجهه الحائط، لن يرفع الكاهل حتى ينتهى من
طريحته، أربعين مترا أى ما يعادل أربعة حوائط غرفة كاملة هى
مهمته حتى يقبض ماهيته، ماهيته التى لا تساوى ربع ربع ما
بذل من مجهود من أجلها.

عاد نبيل إلى بيته منهمكا يعاني شدة النَّصب، بعد عمل يوم شاق في أعمال المحارة أتربة الأسمت ونقع الرمال تغبر وجهه، ألقى بجسده على الكنبه يستريح بعض الوقت، عودته تشبه عودة الجندي من ٦٧ كله قروح وجروح.

ذكري (٣)

لم يهدأ له بال منذ الصباح، «هتكمل لى قصة محمد، عايزين نعرفوها» جملة عزف بها كثيراً على طبللة أذن أبيه حتى كادت أن تنخرم من صداها.

جلسا بعد الفراغ من المطعم يكمل له أبوه بقية القصة:

- وعمل إليه بعد ما دخل كلية العلوم؟ هو اخترع حاجة؟
(يقولها بابتسامة).

- يامحمود، كلية العلوم مش هي بس كلية الاختراعات، بس محمد كان حاببها وحابب مجال العلوم.

محمود يهز رأسه كأن إعلاميا يحاور بروفيسور، ثم أردف أبوه:

- اجتهد محمد وذاكر ونجح فى أول سنة وكمل واتخرج من الكلية، جدك هلال قال: جاب تقدير كويس كان الأول على زمائله والكلية كرمته وطلع بعثة لأمريكا عشان يتعلم هناك.

قاطعته محمود:

- هو محمد هيعرف يكلم بتوع أمريكا دول بيبرطموا؟

ابتسم وأجابه :

- أيوه، محمد كان بيعرف يبرطم زيهم، جدك هلال جاب له البتاع دا اسمه إيه.. آه الكمبيوتر لمحمد.

ثم سكت عن السرد فسأله محمود :

- وبعد كدا؟

رد :

- العشا اذنت وقمنا أنا وجدك عشان نتوضو

قالها فى ضجر:

- وجدى ما كملكش الحكاية؟

- لأ كملها تانى يوم قعدنا بردوا بعد المغرب وسألته محمد

عمل إيه فى أمريكا؟

- قال لك إيه جدى؟

- الشيخ هلال ليليتها يابنى وهو بيكلمنى سرح وقال لى وهو

زعلان ياريت محمد ما كان راح أمريكا، قلت له ليه يا حاج؟

قال لى: محمد كان مع دراسته فى أمريكا كان بيعمل مشروع،

جدك قال كان هيبقى حاجة كبيرة لو عمله، بس بتوع أمريكا

قالوا له :

تعمل المشروع باسمنا واحنا هنساعدك، بس محمد مارضيش

ورفض، قال لهم :

- هعمله باسمى وعشان بلده.

قاطعہ محمود كعادتہ :

- الشرقية ..؟

- لأ يا محمود ،بلده مصر، هو كان عايز يخلى المشروع لمصر
مش لأمریکا وبعد فترة يا بنى نزل مصر عشان يزور أهله وهو
راجع عمل حادثة عربية صدمته وجدك قال لى أنهم شكوا فى ان
الحادثة مقصودة بس هما استعوضوا ربنا فى ابنهم، سيبك بقى
من القصة دى يا حودة وبلاش تكلمنى فيها تانى.

* * *

(خالد ١)

مستشفى السلام بالأسكندرية

رجلان صحباه إلى المستشفى ليسعفا المصاب الذى صدمه بسيارته انزلاه من السيارة. أتى المرضى يرتدون الثياب الزرقاء وضعوه على الترولى، الدم ينزف من رأسه وأنفه. أدخلوه إلى الممر المؤدى لغرفة العمليات صاح أحدهم:

- حادثة حادثة، نادى على الدكتور نشأت بسرعة.

الاثنان يتبادلان الحديث معا وهو يلف ويدور كالنحلة لم يهدأ منذ الحادثة خوت المستشفى ومن حوالبه من أطباء وممرضين ومرضى وزوار، نادى عليه ترتدى الثياب الملائكى الأبيض بلوزة تتدلى حتى ركبتها وبنطلون فضفاض، تغطى رأسها بشال أبيض، وجهها أبيض كلها أبيض فى أبيض تنادى عليه:

- يا أستاذ، حضرتك أنت مع اللى جاى فى حادثة عربية؟

رد عليها بصوت منقطع من القلق:

- آه، آه

- تعالى سجل البيانات.

فتحت سجل البيانات خانات أفقية :

التاريخ، اسم الحالة، نوع الإصابة، الدخول الخروج،

تسأله بعدما ملأت خانات التاريخ والدخول ونوع الإصابة :

- اسمه إيه؟

رد مضطرباً :

- مش عارف.

شدت حاجبيها وقالت :

- مش عارف..

ثم متسائلة :

- أنت مش قريبه؟

رد :

- لأ. أنا جى معاه ومش، منت، تلعثم فى الرد وجرى الدم

فى خلايا وجهه، لاحظت توتره فنظرت إليه وقالت :

- هات بطاقة حضرتك آخذ منها البيانات عشان العملية.

مد يده وأخرج المحفظة من جيبه وسحب منها البطاقة ومدھا

اليها. أخذت منه البطاقة وكأنها تأخذ روحه معها، الخوف

يرعبه من المجهول.

ملأت البيانات وردت له بطاقته وسمحت له أن يستريح.

دخل أستاذ (سالم) وهو نزيه غرفة العمليات رثاه مازالتا
تسحب الأكسجين من الهواء، مازال فيه النفس.

خرج أحد الأطباء إلى الثلاثة الذين أتوا مع المصاب وأخبرهم
بأن ينتظروا والأول لن يطببوا المصاب ولن يجرؤوا له العملية - أنها
مستحيلة- تيقن الذى صدمه أنه متهم لا محالة ولا مناص من تلك
المصيبة سوى الأنتظار لفرج الله. هو لم يقصد أن يصدمه لكن هذا
مبرر لا يعتد به .

ينظر إلى هذين الأثنين اللذين حضرا معه إلى المستشفى حتى
لا يفر من فعلته كان يظن ذلك.

يفوض أمره لله وينتظر الفرج: «الله يعلم براءتى وكفى».

جلس الثلاثة فى صالة الأستقبال منتظرين أحد الأطباء أن
يأتيهم ويطمئنهم على المصاب فى وقت الانتظار، تعرفوا على
بعضهم . دقائق وأتى المحضر الجنائى ليثبت الحالة، متوسط
القامة فى العقد الخامس يرتدى قميصاً وبنطالاً ونظارة قراءة
تتدلى منها سلسلة على جيده فى يده تحت أبطه الأيمن ملف
يدون فيه مثل أنه فى يوم كذ، الساعة كذا، قد تم إثبات كذا،
وسماع كل من... وتم غلق المحضر بتاريخ / / .

أتى المحضر. جلس بين يدى الشرطى وهو والأثنان الأخران
والخوف والتوتر كفيلا نى بإدانتة.

فتح المحضر:

اسم من حضر بالمصاب.

الأول.

الأسم: بلال إبراهيم بلال

السن اربعين عام

الوظيفة: خبير فى التنمية البشرية

المحضر: الحادثة حصلت ازاي؟

الدم يتدفق أكثر على وجهه والخوف يقتله دا هيقول إنى خبطته وهو بيعدى الطريق هيودينى فى داهية. كل هذا قاله مع نفسه قبل أن يأخذ الشاهد الأول شهيقه ليبرد.

بلال: أنا والرجل دا، ويشير إلى الشاهد الثانى كنا واقفين على الطريق وشوفناه وهو بيعدى الطريق وشكله ماكنش مركز وهو بيعدى عربية ملاكى صدمته ومشيت وجبناه احنا التلاتة فى عربية الراجل دا ويشير للخائف الذى صدمه .

المحضر: خدت نمرة العربية؟

بلال أجاب بالنفى:

– لأ.

المحضر بشك أظهره وأبداه فى نبرته:

– ليه؟

بلال بهدوء وثقة:

– ملحقناش.

المحضر يوجه سؤاله للشاهد الثانى : اسمك؟

- مسعد سعد .

المحضر بنبرة مرتابة :

- إيه اللى حصل؟

مسعد :

- وزى الأستاذ بلال ما قال لحضرتك .

المحضر ينظر له من تحت نظارته قائلا :

- متأكد؟

مسعد سعد يضع كفه على فمه :

- آه متأكد .

ينتقل بالسؤال للثالث ، صاحب الحادثة الذى هدا قليلا بإجابة
الأخرين أخرجوه من المعضلة الجنائية .

المحضر :

- اسمك؟

- خالد سعيد محمد .

المحضر : الحادثة حصلت ازاى؟

أراد الشرطى أن يريكه بهذا السؤال لأنه يشك فى إجابة
الأثنين والخوف فاضح على وجه خالد .

خالد اذدرد ريقه ورد :

- أنا كنت راكن العربية وواقف سمعت الأستاذ بلال سعد بينادى عليه عشان انقل معاهم المصاب للمستشفى.

لاحظ الشرطى ارتبাকে فسأله :

- مين الأستاذ بلال سعد؟

أشار خالد لمسعد سعد فهز المحضر رأسه وأمرهم بالتوقيع فوقّع الثلاثة ورحل المحضر ومن وراءه مسعد سعد وتبقى فى المستشفى بلال خبير التنمية البشرية وخالد مسيب الحادثة.

بلال بعدما جلسا معاً فترة من الوقت :

- يا راجل أنت كنت هاتضيع نفسك وتضيعنا معاك.

جلسا معا يتعارفان. بلال إبراهيم بلال خبير تنمية بشرية متخصص فى علم الفراسة وتحليل الشخصيات ، فى العقد الخامس من عمره. طويل القامة ، وجهه مستدير ، شفته السفلى ممتلئة ، حاجباه مقوسان على عينه ، بنيانه رياضى ، لحيته خفيفة قصيرة بيضاء ، يلبس نظارة ، يحب المداعبة.

وهذا خالد سعيد خالد تخطى الثلاثين بعام واحد ، تخرج فى كلية خدمة اجتماعية من عام ٢٠٠٩ متوسط ألقامة ، متواضع الوسامة ، وجهه مثلث جبته بارزة بعض الشىء ، قوامه يميل للسمنة ، مطلق ، يعمل سائق تاكسى ، مقحم نفسه فى النضال السياسى ؛ لذلك يقضى معظم وقته فى الضيافة الأمنية

ضحية قضية (٢)

بعد عامين من صحبة الكتب في المكتبة

- فين الرواية يا أستاذة ريحانة؟

ريحانة تعدل من وضع نظارتها التي كانت مسدلة على أنفها

وتعيدها على عينيها:

- استعارها أحمد عشان يقرأها، عجيبته فأخذها .

رجاء متسائلة:

- مين أحمد دا؟

ريحانة:

- شاب ثلاثيني وفد على المكتبة بصحبة إسلام.

امتعضت وأردفت متسائلة:

- امتي أخذها؟

ردت ريحانة :

- أول أمبارح وهيحبها يوم السبت الجاي ، شوفى حاجة غيرها واقريها .

ترد :

- حاضر (وهى تتجه ناحية رفوف القصص والروايات).

هه هه هه... تمرر رجاء سبابتها على الكتب المرصوة وهى تغمم بعناوين الكتب ، تأمل أن يجذبها عنوان كتاب أو تعثر على آخر تعرفه فتسحبه وتقرأه.

تسحب رواية من ثنايا الكتب الأخرى - كما يسحب القائد جندا - من الصف - العنوان يوحى بشيء ما.

لم تحل النظر لتعرف لون الغلاف أو اسم المؤلف ، قد أخذها فضول المعرفة وانهاالت على الصفحات الأولى لتكتشف ما بها.

لم تك رجاء وصلت لمقعددها على منضدة القراءة المنصوبة وسط عرصة المكتبة وقد قرأت أولى صفحات الرواية. تجلس على الكرسي وهى مازالت تكرر وتعيد قراءة مستهل الرواية.

تأكدت من جلستها وطوت مصرعى الرواية على سبابتها حتى تعاود ما توقفت قراءتها عندها ومازالت تتمتم ببيت شعر حفظته.

يشرذ نظرها إلى سقف المكتبة بعدما انثيت قليلا للوراء. أسررتها حالة من الانبهار والإعجاب بمستهل الرواية. يبدو أن الكاتب يخبيء شيئاً عميقاً فى طياتها. هكذا حدثت رجاء نفسها.

تفتح الرواية وتعاود القراءة ثانية بتمعنٍ واستمتاع تتأمل
الكلمات المنثورة على السطور كلمة كلمة وأحياناً تعيد بعض
الجمال قراءة.

رجاء هامت وساحت في الروايات الرومانسية فلا غرو أن تسال
عن رواية (كبرياء وتحامل)

جاءت أستاذة ريحانة ومعها قدحان مملوءان بمشروب الشاي.

- إتفضلى يار جاء الشاي.

تكرر :

- إتفضلى يا رجاء الشاي كوبايتك يابنتى.

تمد رجاء يدها لتأخذ الكوب دون همس أو نظر، استحوذت
عليها الرواية بكلماتها وأسرتها بين سطورها وسببتها بخيالها.

ريحانة لم تكن تدرك أن رجاء مولعة بقراءة القصص والروايات
وتندمج فى قراءتها.

رجاء تقرأ، ريحانة ترشف، الباب يقرع.

كعادته يقرع الباب قبل الدخول يلقي السلام: السلام عليكم
ورحمة الله.

شاب ثلاثينى كما قالت أستاذة ريحانة. يطول رجاء قليلا،
وسيم، وجهه مستطيل، رزين وهاديء كليل الخريف.

ردت ريحانة السلام، وفى سرها ردت رجاء دون أن تنظر لمن
دخل أو ألقى السلام مغمدة غلاف روايتها.

جلس فرحبت به الأستاذة ريحانة :

– مرحبا يا أستاذ أحمد.

عندها لحظت رجاء، ونظرت إليه بنصف عينٍ خجلة.

ريحانة :

– أعرفكم .. وقبل أن يجيبها أكملت : دا الأستاذ أحمد.

رجاء تكمل النظرة وتقول :

– أهلاً بابتسام خفيف مستحي.

ريحانه تعرّف له برجاء :

– أستاذة رجاء

يرد الترحيب والابتسام هو الآخر لرجاء بهدوء وسكينة ، بعد التعارف الشكلى والابتسام المصطنع ، كل منهما جلس وراحا يتحدثان مع الكتب وريحانة تغدو وتروح لا تستقر فى جلسة.

من أول وهلة رأى فيها أحمد رجاء ببسمتها المنطوية تحت حياؤها، ورغم أنه فى أول لقاء جمعهما، هذا اللقاء القليل بالنظرات والعديم بالكلمات، أخذ قلب أحمد يميل لها وعقله يفكر بها، وتكررت المقابلات غير المقصودة فى المكتبة ولم تزد رجاء عن البسمة المفطورعليها ثغرها والكلمات التى تجيب بها عن كلام يوجه لها، وأحمد يتابعها بنظراته وتأملاته المحظورة من خلف حجاب الأعجاب وقلبه وعقله ينشغلان بها أكثر فأكثر، وكلما رأى من رجاء ما يعجبه نمت نبتة الحب فى صحراء

قلب الأعزب أحمد حتى جاء اليوم الذى أعلن فيه عن مشاعره لرجاء التى كانت تخفى هى الأخرى إعجابًا وميلاً تجاهه ؛ لتثمر هذه الذبنة عن ثمرة حب تفتحت زهرتها فى بستان الرومانسية الطاهرة، هذا الحب الذى تقدّست فيها المشاعر وصلّى كل من الطرفين من أجل حبهما.

عادت إلى البيت ونشوة السعادة تغمرها، تقصد غرفتها بسرعة حتى لا تراها أمها، أمها التى مازالت متفوّقة فى موضة العادات والتقاليد الريفية التى تلاشت مع انجراف المباني على الأراضى الزراعية هناك فى عزبة مزغونة حيث موطنهم الأصلي، ومع اقتحام العولمة المدنية والانفتاح التكنولوجى بدءًا من وصلة الدش مرورًا بالطبق الذى اعتلى أسطح كل منازل القرية وتلاشت على إثره زلعة الجبنة الموروثة عن أجدادنا ولا أدرى لماذا هذه المفارقة العجيبة. !! هل لا يتسع السطح للطبق والزلعة معاً؟

ولا ننسى محل (الأتاري) الذى تحول بقدرته قادر إلى (سيبر) عملاق !! مزود بالشبكة العنكبوتية وأجهزة البلاستيشن ٣٥٢ - رحم الله ارنوب وكابتن ماجى أيام ما كان الواحد يحتقر الجهاز لحسابه ٧٥ قرشا، طبعًا لا نغفل دور القنوات الفضائية التى تبث التحرر الأخلاقى فى برامجها التافهة ودرامياتها السقطة هى حجر الزاوية ومعها (الفيز بوك)

لله أمره فيمن اخترع الفيس بوك وجعله خدمه مجانية متاحة للجميع لدرجة ان ينبهك إشعار على الفيس تفتحه فتجد ابن خالك باعًا لك بطلب صداقة متصور سيلقى وهو ممتطى ظهر أتانته الذى نصحه المعلم فى الأبتدائية قائلاً له :

- خدها يابنى من قصيرها وبلاش تعليم لبلادة عقله .

لكن لا بأس من هذا انها العولة . نعود لرجاء التي تتسلل بهدوء تجاه غرفتها؛ أن لمحتها أمها إذن (س وج).

لا وقت لنزالك يا أمى بالنقاش والمجادلة بسبب التأخير؛ فأنا الآن بحاجة لخلوة رومانسية مع مخيلتي، بهذا ينصحها قلبها، وهى لا تكاد تلامس باطن قدميها السجادة الرمادية المفروشة على أرضية البهو وهى تهرع إلى غرفتها خشية أن تشعر بها أو تراها أمها.

رحلة التسلل والعبور إلى غرفتها تمت ونجحت بسلام، دلفت إلى الداخل وأحكمت إغلاق باب الغرفة ووصدته بالمفتاح- كما فعلت امراة العزيز - غلقت الأبواب وقالت: (هيت لك) لا، هذه الفتاة على خلق ودين لن تراود غير خيالها فحسب، تقوم بلقة دورانية وسط غرفتها، صانعة تنورة وهمية بذراعيها تعبيرا عن حالة الطغيان العاطفى السيروتونين يشعل طاقتها لم تجد غير تلك الرقصة الدورانية لتفرغ بعضا منها - كثيرا ما اطلعنا أن تلك الحالات تزيد من إفرازات الجسم السيروتونين. من يحب يفعل المستحيل .. صدقوا.

بسبب السيروتونين..من حقها أن تصفد الباب، ماذا لو رأتها أمها وهى ترقص هكذا لن يكون سوى التوبيخ وشراء نعل جديد غير الذى بدد على جسم تلك الفتاة الهيوم.

بعد رقاصات أشبعت بها رغبتها فى التعبير عن حالة الطوفان العاطفى التى صحبتها منذ اللقاء السعيد، مسبب تلك الأرهاصات العاطفية فى داخل انثى عذراء متخفية وراء حياءها المعزول عن

النزوات الرومانتيكية المبعثرة فى كل ركن فى حديقة، أو مقعد فى قاعة سينما، أو جلسة ومشية على شط النيل، أو حتى مقابلة بعد العمل، أو نظرة مع بسملة جريئة أو.. أو..

تستلقى الفتاة - الغارقة فى فيضان السيروتونين - بظهرها على سريرها وتغمض عينيها بعدما تنهدت، تاركة العنان لشريط الذكريات أن يكر لحظات اللقاء السعيد لحظة لحظة فى مخيلتها. هذا اللقاء الذى أعلن فيه أحمد عن مشاعره تجاه رجاء وأخبرها أنه سيزورهم فى منزلهم إن وافقت وتفهمت مشاعره، ليأتى اللقاء بالأسرتين وتقرأ فاتحة الخطوبة لأحمد ورجاء.

تجلس أمام مرآة هندامها (التسريحة) على مقعد مستدير، مبطن بالأسفنج المطاطى. تحل طرحة الحجاب التى تغطى رأسها وتلقى بها على سريرها، فكت العقدة وهزت رأسها فتموج شعرها الحريرى الطويل وانسدل على كتفها وظهرها، أمسكت ببعض خصيلات شعرها المنسدل بعقلة السبابة ولوتها وهى تنظر فى وجه المرأة. تتذكر ما حدث معها اليوم، تستعيد المشهد فى مخيلتها.

تراه يهمس إليها بخطواته.. يقف خلفها.. يئنثنى إليها، بأطراف كفيه يلف العقد على جيدها، تبتسم هى وتنظر إليه فإذا هو يقبل جبينها، بقبلةٍ تحمل فى حرارتها منتهى المحبة والود، قبلة الوفاء والأخلاص المتبادل، حرارة الشوق والعشق الطاهر تلتهب بهما أنفاس قبلته، تمسك بيدها اليمنى كفه اليسرى وتلامس بها خدها، ترخى جفون عينيها وتتوسد باطن كفه، داعبت خدها بكفه لتشعر بالحنان المتدفق.

هى لايهمها أكان هذا العِدُّ ذهبًا، أم فضة؟

تكفى هذه العاطفة الرومانتيكية الملتهبة، وهذا الأحساس المشتعل.

يا له من مشهد كان رائعًا أن لعب الخيال فيه بكل حرفية وإتقان؛ ليضفى على رجاء حالة من الإيجابية والأمل. تقوم رجاء من أمام المرآة لتحضر مع أمها وجبة الغداء، والدها أوشك على العودة من العمل، تكتمل المائدة الأسرية بعودته من العمل فى تلك الساعة الرابعة عصرًا.

خرجت رجاء من خدرها إلى ساحة البيت بعدما بدلت ملابسها بأخرى، تغمرها انتعاشة روحية، وتحيط بها هالة من السعادة، تنادى:

- أمى أمى ،ماما..

أمها وهى فى المطبخ :

- نعم يا رجاء

رجاء:

- هنجهز فى الغدا إيه يا؟

أمها مستنكرة عليها فعلتها:

- هنجهز إيه .. لا مش هنجهز.

تقول رجاء وهى تقترب من المطبخ:

- ليه .. احنا مش صايمين النهاردة ؟.

أمها:

- أيوة يا حبيبتي ،مش صايمين بس خلاص جهزت الغدا
وانتِ مطنشة براحتك يارجاء.

رجاء تقرب من أمها وتحتضن كتفها من الخلف وتقول في
دلال:

- انتِ البركة ياست الكل.

نشوة السعادة من المشهد الخيالي لم تمنح من واقع رجاء بعد!!

أمرتها أمها بأن تأخذ الأطباق وتضعها على الخوان لتعد
المائدة.

٢٥/٦/٢٠١٢ الساعة ٥ مساء

فى مقر العمل الصحفى كان أحمد يفرغ من آلة التصوير
محتواها الفوتوغرافى الذى التقطته من أحداث الشارع وقتها
؛فشوارع مصر أيامها كانت تعج بالأفراح والإحتفالات الشعبية..

كان هذا فى المكتب الذى كان يضم أحمد واثنين من زملاء العمل
بجانب رفوف الملفات والمنضدات الخشبية الموضوع عليها أجهزة
الحاسوب، والمبعثرة عليها الأقلام وبعض الوريقات. زميله الذى
كان يحاول تثبيت قلمه - على مكتبه - فى شئ من الأختبار :

- أنت مبسوط على الآخر ياعم أحمد والدنيا رايقة معاك إيه؟

كان هذا صوت رفيقه فى العمل والحياة

أحمد يبدو عليه الأبتهاج والسرور:

- يا عم دى مصر كلها مبسوفة النهاردة، أنت ما نزلت الشارع
وشفت الإحتفالات؟ ولا أنت عشان كنت واحد مننا مش هتفرح
زينا؟! عايزين نتكاتف عشان مصر، ثم بنبرة فخر واعتزاز:

- ولا أنتم هتزعلوا منها عشان اختارت ؟

فرد صاحبه وقد أبدى اللامبالاة لفخر الأخير:

- لا ياعم احنا ولا هنزعل ولا هنفرح احنا هنتفرج لما نشوف
هيعملوا إيه اللي مصر اختارتهم و«النهضة إرادة شعب». قالها
باتسامة تنكر ما يشعره ويخفيه .

يرد أحمد سائلاً:

- يعنى هتتفرجوا مش هتشمروا عن سواعد المساعدة؟

- ياعم دى نهضتكم انتم وانتم الأدرى بيها.. وربنا يوفتكم.
احنا نكره؟ ثم أردف بشيء من الاستهتار: ياريت بس تقدرنا.

- أى ياعم صيغة أنتم ونهضتكم؟ محسنى أنى رئيس شعبة
فى الجماعة. ياعم أنى مع اللى هيصالح، وعلى العموم مش
تبارك لي، أنا خطبت.

يبتسم ويقول:

- ألللف مبرووك يا برنس، والله وعملوها الرجالة.

- عقبالك.

- ماشى بس لما يبان لمصر ملامح ونشوفها هتروح على فين؟

- ياعم، ما الأمور استقرت مصر بقت دولة، رئيس منتخب
والدستور فى السكة وبعده برلمان؛ والعجلة هتمشى والخير جاى.
- يا مسهل بس مش هاخطب دى الوقت .

بعد خطوبة أحمد ور جاء

يرن جرس شقتهم فيهرع الصبى العابث ليفتح الباب وبرخامة
صبي مدلل حد السخافة.

- هو أنت .. أدخل

أحمد يعيد رسم إبتسامته قبل أن تأتي أم رجاء فتزجر صبيها
وترحب بالضيف:

- مرحب يا أستاذ أحمد ،الولد دا شقى شوية، بس ذكى
وجدع .

- ربنا يخليه لكم ويبارك فيه.

- عمك جوه وجاى اتفضل.

جلس أحمد ثم جاء رب البيت وأخذوا يتبادلان السلام
والترحيب.

أحمد يشعر وهو داخل الحلقة الأسرية، المكون من الأب والأم
والصبى العابث، إنه فى حراسة مشددة لهمساته ونظراته لرجاء
ويتحين فرصة الأحتلاء بها ليعبر لها عن مكنوناته الرومانسية
والعاطفية حتى جاءت اللحظة التى يتمناها.

- إيه بابا هيفضل لازق لنا كدة هو ماما؟ مش عارف اطلع
الكلمتين اللي محشورين هنا (وأشار إلى حنجرتة).

ردت عليه رجاء وهي تبتسم خجلا :

- إيه لازق لنا دي ومحشورين ، كلامك بقى بلدى أووى .

- يا ستى ما تعلقيش وسبيني أقول الكلمتين.

وهي مازالت الأبتسامه تكسو وجهها وعينها تستحي ، قالت :

- قول الكلمتين.

أستحضر بدوره سحر أسلوبه التي عاهدته عليه وعشقتة :

- بحبك وانتي فهماني، بحبك وانتي وحشاني .

اتسعت أبتسامتها ونظرت إليه وقالت باستحياء :

- وانا كمان (بصوت سقط منه النون).

- وانتِ كمان إيه؟

- وأنا كمان وح... .

لم تكمل الجملة وقد خرجت عليهما أمها تحمل فى يدها
صنية عليها كأسان مملؤان :

-أهلا يا أستاذ أحمد.

-أهلا بيكى يا تانت ..ازى حضرتك؟

-الحمدلله.

دقائق وخرج أبو رجاء لينتهى أمل أحمد بالأنفراد الرومانسى
المنتظر مع (رجاء)

أحمد:

- أزيك ياعمى؟

قالها وهو يعرض على نواجذه يئسا وغيظًا. لم يكن لأحمد
ورجاء إلا اختلاس النظرات والبسمات والتحدث فى أمور غير ما
يردان .

رجاء بصوت أقرب إلى للهمس متسائلة:

- كنت فىن أمبارح يا أحمد؟

فى الحقيقة هى تسأله لا لتعرف أين كان، إنما لتسمع صوته
وتذكر اسمه.

أحمد:

- كنت مع محمد صديقى فى التجمع، كان بيفرجنى على
فيلته اللى بناها فى التجمع.

«عقبال فيلتنا يا قمر»، قالها فى سره وهو ينظر لرجاء؛ لأنه
لا يستطيع البوح بها فى وجود هؤلاء الحراس (أمها وأبيها).

- عقبال فيلتك يا أستاذ (أحمد).

- أشكرك يا عمى، بس محمد أبوه مبسوط، ثم ضحك وقال:

- وارث ياعمى اللى زينا محتاج يحوش على ما يعمل فيلا .

أم رجاء :

- ما فيش حاجة كتيرة على ربنا يا بنى.

- أكيد يا تانت ونعم بالله ، بالإجتهد كل شىء ممكن.

بعدهما يأس أحمد من الخلو الرومانسية برجاء أستاذن بالذهاب؛ فهو لم يأت للحديث عن (محمد) صديقه والفيلل والعمارات وغيرها من حوارات تسلية الوقت. ودعته ماتيمها بالزيارة حتى الباب. خرج وهو يتنزل درجات السلم وكاد الصبى العابث أن يصطدم به؛ كان يركض كأنه فار من جريمة ارتكبها راوغه أحمد: مش تسلم عليه ياد، نظر إليه وهو يلهث هه هه.. أنت كنه هه كنت عندنا؟

احمد يلهث هو الآخر سخرية منه :

- آه كنت هه هه.. عند.. عندكم، عا عا ملت إليه المرة دى؟

لم يجبه العابث وركض لأعلى، نزل أحمد وسمع أصواتا تحت العمارة تقول:

والله لأدفع أبوه حق الأزاز اللي كسره واللب اللي اتبعتر.

نظر أحمد تجاه الصوت فوجده صاحب محل البقالة وقد كسر زجاج الفاترينة، وبعثر حبات اللب على الأرض، حينها أدرك لم كان يركض ذلك الصبى العابث، ثم نظر إلى هاتفه وتأمل الكسر الذى أصابه وتصعب على نفسه ورحل.

فى ليلة هذا اليوم أخذا يتبادلان حديث الهوى والرومانسية -
الباهتة - كعادتهما كل ليلة.

- النهاردة أنا قلت هعرف أكلمك شوية، لكن ولدتك جت
فى الوقت الغلط.

- ما احنا أدينا بنتكلم فى التليفون.

- لاااااا (مادا صوته) فى فرق بين الكلام فى التليفون وبين ما
شوفك وانتِ بنتكلمى ونقعد مع بعض ونتكلم.

بصوت هامس:

- إيه الفرق؟

رد بساحريته الحاضرة:

- لا، الفرق كبير يا حبيبتى فى فرق بين ما أسمعك فى
التليفون، ودنى بس اللى بتستمع وما بين ما بشوفك وانتِ
بتتكلمى، ودنى وعينى وقلبى بيستمعوا بصوتك

ثم يهدئ من نبرته ويهمس:

- بشوف الحروف وهى طالعة من شفائىك وأنتِ بتتكلمى،
انا باحسها باشمها، بدوب لما بترسمى البسمة على شفائىك
وخدودك بتنور بيها شوفتى الفرق اللى أنا محروم منه يارجاء.

رجاء تقعد على سريرها واضعة سماعة الأذن وتتلاعب بالمايك
على شفقيه تغمض عينيها وتذوب بتلك الكلمات فى خيالها -
ذابت كحبيبات السكر فى الماء-

- رجاء، انتِ رحّت فين؟

- معاك.

- وأنا معاكِ وانتِ جوايا، فى قلبى وخیالى وروحي، ؟

- وانتِ جوايا. قالتها رجاء متأثرة برتمه فى الكلام كمن يردد

مع المغني دون وعي

- بجد؟

- آه بجد، أنت بعد الكلام دا حد ممكن يفرط فيك، أنت

بتقول شعر؟ ضاحكةً قالتها لتواری خجلها؛ فألهمت ضحكتها

وكلامها الأخير قريحة أحمد النابضة بالحب فزاد عزفه على

وتره الساحر :

- أنتِ أكبر من أن يقال فيكِ شعر، انتِ الشعر، إنتِ فى

حقيقتك قصيدة شعر نفسى أغنيها.

- غنيها.

- ما أقدرش!

- ليه ما تقدرش؟

- خايف ما عرفش أغنيها، لجمالها، لجلالها

ثم ضحك واردف بنبرة سريعة:

- صوتى مش كويس اصحابى بيقولوا كدا وضحك بلطف.

- وأنا باقول صوتك جميل .

- ورأى اصحابى فيه؟

- مع احترامى ليهم، لكن رأيهم غلط ومالوش قيمة، وانا ما يهمنى رأى الناس فيك، أنا مقتنعة بيك وبصوتك.

- هتدبسى فى صوتي؟

- أحلى تدبيسة

- بحبك.

ردت باستحياء بأن أغلقت الخط !

خالد (٢)

الشمس ودعت النهار وسمحت لليل أن يطل، خالد يقضى وقت الأنتظار يفكر فى مستقبله. خرج المصاب من تحت العملية فى الثامنة مساءً، لكنه فى غيبوبة. وقبل أن يغادرا المستشفى دفع خالد ما كان معه من مال للمستشفى وساعده خبير التنمية بما كان يملك وقتها.

عاد كل منهما إلى مأواه واتفقا أن يعودا فى الغد.

ثلاثة أيام المصاب مازال أسير الغيبوبة. خالد وبلال خبيران التنمية البشرية يجلسان فى إستراحة المشفى كعادتهم فى الأيام التى فيها، كلفا أنفسهما بمتابعة المصاب بعدما عجزت إدارة المستشفى عن التواصل مع من يخصه، المصاب لم يكن يحمل وقتها ما يستدل على هويته، لا هاتف، لا بطاقة، لا كارنيه لا إيصال نور، لا شىء.

خبير التنمية وخالد يكسران الملل بالحديث والتعرف أكثر على بعضهما

يندهش خالد: يا نهار أبيض يعنى حضرتك ممكن تعرف صفاتى من شكلى وتقدر تفسرها وتحكم على من خلالها .

الخبير: آه.

خالد: آه، (يفتح فمه) آه بجد، !

الخبير: مش مصدق أثبت لك .

خالد: اثبت ونشوف دا جميل لو حصل.

الخبير: شوف ياخالد، ملامحك بتقول إنك متضايق، أو فى مشاكل صعبة فى حياتك.

رد خالد: جميل، بس كل الناس عندها مشاكل فى حياتها.

الخبير:

– أكيد، لكن يا خالد مشاكلك أنت مزمنة، أنت بتعانى منها طول الوقت، يعنى بتطاردك، وأنت عايز تتخلص منها بس مش عارف تتخلص(ثم ابتسم وقال): أنا مش هاسألك طبعاً لأنك مصدق كلامى.

خالد بتعجب:

– أنت عارف منين أنى مصدقك؟

الخبير:

– أقول لك، أنت عارف ليه الشرطى رخم عليك فى الأسئلة انت والأستاذ الثانى اللى كان معانا يوم الحادثة؟

خالد: ليه؟

الخبير: عشان أنت كنت متوتر وظهر توترك على وجهك،
والأستاذ مسعد حط ايده على بقه وهو بيجاوب ودى علامة للى
بيخبى الحقيقة.

يندهش فيلاحظ الخبير زيغ بصره يساراً فيزيده دهشة قائلاً:

- وانت دى الوقت رجعت للمشهد.

يصعق خالد بما يكشفه له الخبير من حقائق فى عقله.

خالد يستزيد وفي نفسه أنه سينبئه - هذا الكاهن- بمصيره فى

المستقبل :

- إيه تاني؟! !

الخبير:

- أنت شخص غضوب.

خالد غاضباً :

- إيه العلامة؟

أخبره الخبير بمكنونات فى داخله جعلت خالد يستزيد

خالد:

- قول قول، أقول على طول دا انت برنس .

الخبير:

- انت يا خالد ما بتحبش القيود، وبتكره الظلم، وممكن دا

اللى يكون مسبب لك المشاكل.

خالد:

- صح، أقول تانى أقول ما توقفش.

الخبير:

- كفاية بقى النهار هاستأذنك عندى معاد ومحتاج ارجع قبل الساعة أربعة أنت قاعد ولا هتمشى؟

خالد:

- لأ هامشى .. وجودى زى عدمه، أنا سايب تلفونى لو فى جديد المستشفى هتصل علىّ.

الخبير: طب يلا بينا

توالت الزيارات وانصهر أحمد فى تلك الأسرة، وشاركهم كل شئ حتى أصبح فيهم كالعضو فى الجسد، وزاد تفاهم أحمد ورجاء وتغلغلت أرواحهما فى أعماق حبهما وصارا يعشقان بعضهم لحد اللامعقول، وأخذ يتبادلان رسائل الشوق وكلام العشق، سطر كل منهما أرقى الكلام وأحلاه على صفحة قلب الآخر، شهدت لحبهما قصائد الرومانسية، والحدائق والكافيهات وأماكن العشاق، والأندية والمكتبات. وكل مكان كانا يشهدانه له أثر عاطفى بلقائهما .

فى خلوة رومانسية بين مخطوبين رجاء بدلالها المتخفى فى عباءة الحياء والإلتزام وأحمد بفلسفته الرومانسية المتثرثرة فى كلامه:

رجاء:

- إنت حقيقه؟

أحمد بصوت هامس أقرب لصوت النائم:

- إنتِ شايفانى إيه؟

رجاء بدلال تحاول إخفاءه:

- إنتِ ممكن؟

أحمد:

انا ممكن إيه؟

رجاء كطالب الأزهرية فى الأمتحان الشفوى للقرآن عندما

يسأله الشيخ فى جزء عمّ وهو غير حافظ:

- ...

- ممكن إيه؟

- مش عارفة!!

- مش عارفه إيه؟

- توعدني؟

أحمد: أوعدك

- توعدنى بإيه؟

- أوعدك ان مش ممكن...

وتعمد الصمت، فتسأله رجاء وقد وضح الدلال فى نبرتها:

- مش ممكن آه؟

- مش ممكن استغنى عنك لو الدنيا كلها وقفت بيننا. اوعدك
انى اكتب معاكى اجمل قصة حب أبدية الخلود .

رجاء: خايفة!

أحمد: الخوف قمة الحرص على الشىء، بيقولوا من خاف سلم .

رجاء تسأله في شىء من الشك:

-إنت خايف؟

أحمد:

-أنا مطمئن. أنا مطمئن إن ربنا خلقنا لبعض، لأنى مش متخيل
واحدة غيرك فى حياتي.

رجاء: بحبك.

أحمد: لو قلت بحبك، يبقى ممكن محبكيش. فلسفة الضدد
باخاف منها .

رجاء: تقول ازاي؟

أحمد: مشاعرى اللى بتقول، طاقتى اللى بتعبر، نيتى اللى بتتكلم .

رجاء: بس لازم كلام !

أحمد:الكلام مش يقدر يعبر عن مشاعري، احنا ممكن نحس
بعض. وقتها ارواحنا تتقابل وتتكلم

رجاء: بس عايز أقول لك بحبك.

خالد (٣)

مستر بوش: لقد عثرنا نحن قوات العمليات الخاصة المصرية على (بن لادن) فى وكره المنزلى وكان متخفياً تحت الملاءة، هذا بعد مقاومة عنيفة لزفير شخيره المزعج.

يفتح «خالد بن لادن» عينيه على فوهات الأسلحة الآلية مصوبة على كل جزء فى جسده الهامد، وبصره من الدهشة حديد. وجوه ملثمة لا يظهر من ملامحها شئ سوى أعين يتطاير منها الشرر. ترجم المشهد عقل خالد قبل أن تستلقف يدُ خالد وتودعه ساحة البوكس. موكب أمنى أتى لاصطحاب خالد إلى مقر ضيافتهم الأمنية المعتاد عليها خالد، عربة البوكس التى تحمل الخطير (خالد) تُقبلها مدرعة وتدبرها مدرعة وتيمينها مدرعة وتشملها مدرعة- لانخشى دخول الحرب؛ عندنا مدرعات متوفرة بكثافة فلتخشع إذن إسرائيل - يسير الموكب إلى قسم الشرطة وخالد يتلقى من أحدهم مزيجاً من اللكمات والضربات والشتائم والسباب ما بين: أمك وأبيك وكل أفراد العائلة، وأحياناً تنال الشتائم الجيران والمعارف حتى يصل ويريح خالد فى زنزانته، الزنزانة حجرة لا تسمح لشخص واحد أن يمدد فى ساحتها، لكن من كثافة السكان الأمن المصرى يجعلها متسعة لعشرين فرداً زنزانة

يحفظ خالد معالمها المظلمة عن ظهر قلب - فكم تأملها خالد،
كان يتأملها كما يتأمل السائح اليابانى لوحة الموناليزا، كان يفعل
ذلك قطعاً للوقت الذى كان يقضيه بها.

بعيدا عن مونوليزا خالد، يكسر صوت خشن أنين الزنازين
المرجف، أنه صوت الحارس:

- خالد، البية عايزك.

بدأ التحقيق الأمنى بسيل من الأسئلة المتكررة يجرف صبر
خالد، على خالد أن يجيب عما لا يقل عن مائة سؤال أغلبها
متكرر وبصيغة مختلفة، من أنت؟ ما هو نشاطك؟ ما طبيعة
عملك؟ متى انضمت للجماعة؟ ماذا تعرف عن الجماعة؟ أبرز
قيادات الجماعة؟ احك تاريخك مع الجماعة، ما أخبار الجماعة؟
أنت بتولع سيجارتك بالكبريت ولا بالولاعة؟ كلمنى وأنت شايل
السماعة.

كلها أسئلة لا منطق لها..

.. سخيفة ..

.. ساذجة ..

أسئلة تنطوي على عقل مستخف أحرق

وقد يكون المسئول لا يعرف ما هذه الجماعة فضلاً عن كونه
محجوز تحرى أو اعتباطياً مع أى جماعة!! لكنه منوط بالإجابة
والرضوخ

خالد بعدما يجيب عن الأسئلة حسبما يريد السائل يعود
لنزائته يتفقد معالمها المظلمة ويكمل تأمله فيها حتى يأتوه أهل
الكرم والضيافة وينهلوا عليه بما فاض به أصلهم من تجريد
الملابس ورشه بالماء شديد البرودة لينعشوا خالد ويجعلوا أعضاءه
من الانتعاش تتصلب، وأحشاؤه تتجمد، وأسنانه تتعارك مع
بعضها، وإذا رآه يشتكى البرودة أذفئوا جسده بجمر السجائر..
وأحيانا يجبروه على ممارسة الرياضة، فيجلسونه القرفصاء،
ويوقفونه على ساق واحدة ويرحون الأخرى...، كلها أساليب
تفنن فيها السجان المصرى ليجعل من المسجون والمعتقل عبرة لمن
أراد أن يخالف النظام أو يفكر فى ذلك (والنظام يحترم لا شك
فى هذا).

* * *

أشباه أحياء (الفقر ٣)

لم يكن يوم ٣/٧/٢٠١٣ سوى بداية عهد جديد يتسم بالملامات الفاجعة على هذا التعيس العابس وغيره من بقية الجمهور الغافل، تجلت ملامح هذا العهد فى صورة شبح كابوسى فى الثامنة مساءً من ذلك اليوم الفوضى العارم بالمتناقضات حينها، عندما قطع صوت هاتفه ضجيج الفوضى الصاخب من آفة الشعب الغافل، خليط من الضوضاء الغنائى الشعبى أحياناً والوطنى قليلاً، وموسيقى الرقص كثيراً.

لم يسمع الرنة الأولى لكن صوت هاتفه تغلب على أصوات الفوضى وتسرب إلى طبلة أذنيه، كان يحمل فى يده اليسرى علم مصر وبين السبابة والوسطى فى اليمنى كانت سيجارته، لفافة مارلبورو، لايشرب هذا النوع إلا فى المناسبات السياسية والطلعات الثورية المزيفة طيلة عامين.

قبل أن يسلك يده فى جيب سرواله الجينز المهترئ؛ ليخرج الهاتف وضع علم مصر بين فخذه ثم استخلص الهاتف من بين زحام الولاة الغازية، والوريقات النقدية ومفتاح لا قيمة له.

بصوت يقاوم الضوضاء:

- ألو، مين معايا؟

كلمات كانت تصارع ضجيج الفوضى لتصل إلى طبلة أذنه عبر قناة استيكوس التى لم تسمح إلا بمرور كلمة (أمك) مما جعله يخبئ أذنه اليسرى بكفه التى تحمل السيجارة ويضغط على هيكل الهاتف على أذنه، وضح الصوت:

- ايوة بتقول إيه؟

...

- تعبت أمتى؟ ومين معاها؟

...

- مستشفى إيه؟

تفل السيجارة طغى على شكلها

- ماعرفش عايز حاجة سلام.

لم تكن الميم خرجت من فيه المتصل حتى عبثت أنامل نبيل بقائمة أسماء هاتفه المتهالك، لتشد رقم الشيخ سعيد إلى زر الاتصال، معذببات الرنة على الشيخ سعيد كانت عضلات فخذى نبيل قد حررت علم مصر ودهسته أرضاً وهرولت مسافة أمتار بعيداً عن الفوضى ليتسى له سماع المكالمة بوضوح.

- ألو؟

يرد الصوت: السلام عليكم ورحمة الله

نبيل دون رد السلام: انا نبيل ياشيخ سعيد أمى معاك؟

؟ -

- فى التحرير وجاى إنتوا فى انو مستشفى؟

الشيخ فى نفسه: سيق نبيل إلى التحرير مع الفرقة المغيبة اللى بتشم وبتضرب حقن، ساقهم البيه (عضو برلمانى سابق ٢٠١٠) ساقهم» بالمائة جنيه» والكام برشامة كما يساق القطيع بالعصى - قاتل الله الفقر والجهل - جعلنا فى ذيل الأمم .

- احنا يانبيل راجعين بأمك البيت دى الوقت.

- سلام، سلام.

تنحى نبيل عن مهامه الوطنية التى بُعث من أجلها لميدان التحرير، وخالف ميثاق الشرف الذى قطعه مع من بعثه (البيه العضو البرلمانى) ليعود إلى أمه يطمئن عليها، وفى أول اختبار عجز وجزع، لم يراع حق «الورقة الخضرا» والعلبة المالبورو، وهذا حق أن يحتشد فى هذا اليوم ليمثل جموع الشعب وينادى باسقاط (البتاع) لقد ارتكب أثماً عظيماً، دهس علم «مصر» وهرع من ميدان التحرير إلى أمه، فر كما يفر الجند الجبان من المعركة - وحسبه لو أن جنداً فر وهرب من معركة أكتوبر، لفعلته أهون وأيسر من فعلة نبيل هذه. ويحك يا نبيل دهست العلم وهربت، ليت الهجان والشوان لا يعرفان.

استقل نبيل بعد هروبه سيارة الأجرة، وبعد دقائق نزل منها وعبر الجانب الآخر للطريق، على ناصية الشارع كان أفراد من أهالي منشأة ناصر القليلة جدا - لكنها هي جموع الشعب هكذا وصفهم الإعلام حينها - يحتفلون بالحدث التاريخي الذي أصاب مصر في دبرها وهي لا تشعر، نساء في العقد الثالث والرابع ممثلثة البنية يرتدين عباءات مجسمة لو رمقتها عين راهب لأثارت غريزته وابطلت رهبنيته. وجوههن تلمع بالبودرة الحمراء والخضراء ومعظمهن عجالات يستأجرن بالساعة في سوق الخضار، وشباب ممن يضربون البانجو صباحا ومساءً، لا تخلو جيوب سراولهم - التي تهرب من خصرهم - من حبيبات وأقراص (الترامادول والتامول) و... وكل ما يتفرع من عائلة (مول) يمسكون بأعلام» مصر» وصور لأشخاص يرتدون الزي العسكري تكسو الخيانة والغدر ملامح أحدهم. يرقصون صرخون ويذمرون كأن مصر فازت بكأس العالم، ضجيج جمهوري على الناصية يمتزج مع نعيق السيارات التي تسير على الأتوستراد، حالة فوضى أخرى ومعظم هؤلاء لا يفكون الخط مثل نبيل ويعتقدون أن غزة عاصمة تل أبيب وأن الأهرامات أحدهم حملها وقام ببيعها لقطر، ما علينا نعود لنبييل، دلف نبيل إلى منزلهم فرمق أمه طريحة سريرها تتنهد وحولها إمرأتان سمينتان من جيرانها في الشارع، اقترب واتثنى لأمه :

- مالك ياما؟

نظرت وردت في خفوت :

- مافيش كويسة يابني .

قبل أن يطرق الباب الشيخ سعيد ويدخل ومعه شنطة أدوية
كيماوية ستضاف إلى الثروة العلاجية لتلك المريضة البائسة، قابله
نبيل بترحيب ساذج:

- تعالى يا شيخ .

الشيخ اقترب من الطريحة سريرها وقال:

- خدى يا أم نبيل، العلاج بانتظام وخير ماتقلقيش.

دس تحت وسادتها وريقات لمحته فأردفت فى خفوت متقطع:

- لا يا شيخ مستورة والحمدلله كفاية اللي عملته.

ألقى السلام وقصد الخارج، وما أن خرج من عتبة الباب
المخلّع حتى تلقفته أيديهم وألقوا به فى ساحة (البوكس)، بدأوا
حملتهم منذ الساعة، يللمون أمثال الشيخ سعيد وأشباهاه، (أن
تكون مطلقا لحيتك سنة، وتحافظ على الصلاة فى جماعة وتقول
جزاك الله خيرا دون شكرا، فأنت ملاقٍ مصير الشيخ سعيد).

الشيخ سعيد الرجل الذى كان يؤدى أدوارًا إجتماعية خدمية
فى الحى الذى يسكن فيه؛ لذلك بدأوا به لخطورة أمره.

مشاهد الفوضى فى تلك الأيام زحرت بها «مصر» الأبية،
الشيخ سعيد يعتقل لأنه يصلى ويستاك، ويؤدى خدمة إجتماعية
ويقوم بحركة توعوية، وجاره سيد أبو شامة، ناشط إجتماعى
أيضا لكن من نوع خاص (المزاج) حر طليق يمارس نشاطه بحرية
تامة وتحت حراسة أمنية تتغافل عنه أحيانا وتطارده أحيانا.

ضحية قضية (٣)

لم تعرف لهذا اليوم وقتا ولم تذكر له تاريخ، أطلعت له شمس؟ لا، أنجلي ظلامه؟ كلا.

نكرته أن يكون كأيام الله. كان يوم من سليل تلك الأيام التي تمخضت فما أنجبت سوى غدرٍ جثم على واقع شعب إرتسم على وجهه البؤس والضياع.

كجدي هزيل مبلل بالماء ضربت به صاعقة بقوة ١٠٠٠ فولت سقطت مغشياً عليها عندما باغتها الناعى فى صوت الهاتف، زملاؤها فى المكتبة أسرعوا إليها مفزوعين من وقوعها على الأرض. يحاولون إفاقتها، أحدهم يرشف على وجهها رشافات مياه باردة وأخرى أخرجت عطرها وتستنشقها، يتحلقون حولها وهم يتساءلون مع بعضهم ما أصابها؟

- رجاء، رجاء.

تناديها أستاذة ريحانة وهى تضرب على خدها بكفها بلطف تحاول إثارتها لتفيق وتكرر :

- رجاء رجاء.

تفريق رجاء بعد رشافات مائية واستنشاقات عطرية وكفكفة
على خدها

ريحانة:

- مالك يا حبيبتي؟

رجاء تفريق.. وبصوت خفيض يكاد لا يسمع :

- أحمد أحمد.

تناولها إحداهن كوب ماء لتشرب فلا تمد يدها لتأخذ الكوب
فتسقيها ريحانة منه، تتجرع رجاء رشفة الماء تحاول إنزالها
لجوفها كأن ذرات المياه حبات جمر، تغص بالماء من شدة حزنها.

بصوت مبحوح باهت:

- أحمد مات أحمد مات مات وهو بيصور فى الفض، الدموع
التي حلت محل الإغماء تبلل وجنتيها الخجلتين المحمرتين من
شدة البكاء.

أقعدها على الكرسي وهم يحاولون تهدئة بكائها الطافح،
وتجفيف دموعها الجارفة التي بللت خدها، تتنهّد ويتسارع
خفقان قلبه وكأنها عداء ركض بعد ألف متر. يستقبل زملاؤها
الخبر فيصيبهم الذهول ويتلاعب أمام أعينهم شبح الفجيعة على
رفيق مجلسهم، رحل أحمد دون وداع رجاء، فالرصاصات التي
سكنت رأسه أثناء تغطيته أحداث الفض لم تهمله لوداع رجاء،
مات الحلم الجميل لتلك الفتاة البتول، وأخذ معه ماتبقى لها
من بقايا آمال رومانسية، عام واحد كان أطيب أيامهما، فيه

تعارفا، تحابا، تألفا، تفاهما، تتضحكا، تتداعبا، تشاركنا كل شئ فيه، تبادلنا الحب والوداد، تسليا بتراتيل العشق وآيات الهوى، كانت أنغومة الصبِّ حكايتهما، نسجا من تلك الأيام الجميلة حلما رومانسياً رائعاً، حتى حسدتهما عليه غبطة المقادير فاختلست هذا الحلم بكابوس فاجع أليم، تكشّف لرجاء فى هيئة رصاصة غادرة أودت بحياة محبوبها البرىء. ستظل رجاء تبكى تلك الأيام ماتبقى لها من أيام فى هذه الحياة التى نزعنا عنها ثياب البهجة والسرور وارتدت ثياب الظلمة والأحزان.

* * *

التدبير الخفى (وسلطة المال ١)

لم يكن جناحا عقرب الساعة قد تقابلا فى معادهما عند الواحدة بعد منتصف الليل حتى وقفت سيارة مرسيديس (همر) موديل السنة أمام أحد حانات شارع الهرم، نزل منها شاب أوشك عمره أن يبلغ الثلاثين عاما، عليه علامات الثراء الفاحش، يبدو ذلك من نوع سيارته الفارهة وملابسه الفخمة ومشيته المختالة.

طويل القامة، بشرته آدمية اللون، تمارين الجيم تظهر فى عضلاته التى كادت أن تفتك بقميصه الأسود الذى يرتديه فوق بنطال جيز بُنى اللون شبيهه بينطال الشحاذ لما به من نوافذ وثقوب - الموضة - حالق رأسه قزعا، مطلق لحيته بدعة لا سنة، ينتعل حذاء يزيد من طوله بعض السنيمترات كالبيادة، ينفث فى لفافة من نوعية باهظة الثمن.

دخل الحانة، الأضواء تلوح بألوانها المتنوعة، وصخب الرقص والسكر يقترب منه.

طقوس الترحيب تقابله من أول نزوله من السيارة على طريقة أمراء روما فى العصر القديم، إنحناء الظهر وبسط اليد وتكرار جملة «أهلاً مصطفى باشا».

أهلاً مصطفى باشا

أهلاً مصطفى باشا

ومصطفى باشا مرة يلوح بكفه.. ومرة ينظر فقط، ومرة لا شيء..، كل حسب منزلته ودرجته يرد له التحية مصطفى باشا. يجلس على منضدة كانت معدة ومجهزة له قبل قدومه، زجاجات من النبيذ والوسكى كحليات مستوردة ومحلية، مائدة من المنكرات تنتظر أبا جهل.

يأتى نادل الصالة ويحنى ظهره:

– «مصطفى باشا» نورت المكان، فيه حاجة ناقصة؟

يرد عليه مصطفى باشا بحركة بيده كأنه يهش زبابة بألا ينفث سيجاره ويذهب نادل الصالة ويبتعد كما يذهب ويبتعد دخان السيجارة.

مصطفى باشا ينفث أكثر فى لفافته من غضبه من تلك التى ترقص على المسرح؛ الكل جاء منحنين بالترحيب حتى صاحب المكان، وماكان منها أن رأته فلوحت بذراعها له مع ضحكة عابرة.

يدير الزجاجاة فى فم الكأس وهو ينظر إليها بعبوس وغضب حتى فاض الكأس بزبد الشمبانيو، يرفع الكأس على فمه يتجرع السكر بلا اكترات لمرارة الكأس!!
كأس وسيجارة، ورقصة بمهارة .

بق خمري ونفس دخانى تمتزج رائحة الخمر بغبار السيجار؛
ليكونا سحابة فى الهواء المصرى، يتنفسه العامة والبسطاء من
فئة الشعب الفقير التى لا تملك حق السيجارة الفرط.

تنهى نمرتها وتحلل لقمتها، وتأتى إليه بعدما غيرت البدلة
التى لا تغطى سوى أجزاء بسيطة من جسدها، بدلة المهنة الفنية
التى تصرف على أمها المريضة منها وتعول أخواتها الصبايا
القُصر- هكذا تدعى الغانيات فى الأفلام العربى.

شعرها يغطى ظهرها العارى معظمه، ثدياها البارزان يكفيان
لإرضاع عشرة أطفال لا تستر منه إلا نهودها الغليظة، ميني ميني
جيب تكسو عورتها به فوقه قطعة قماش تسمى بلوزة عيناها
سوداوتان، أنفها دقيق أخذت شكلاً جميلاً بعد عملية التجميل،
وجنتاها ممثلتان عليهما نصف كيلو بدرة (الميك اب) غير ملامحها
تغيراً جذرياً، تخطت الثلاثين بعام واحد تسمى البرنسيصة ودلوعة
ذلكم الثرى الذى تقترب منه الآن وتقول: حبيبى واحشنى.

ينظر إليها من تحت جفنيه استنكاراً لجمالها هذه!

ترتمى بجواره وتداعبه بضحكة مائعة تنبئ عن قلة أدبها
وسفالتها، تمسك بزجاجة النبيذ وتسكب رشقات منها فى جوف
الكأس وتمده له وهى تقول بنبرة انعدم منها الحياء: رُوِّق روق
تصاحبها قُبلة حارة على خده، يبتسم قليلاً ويردق قائلاً:

- مش هسامحك على اللى انتِ عملتيه.

ثم يرتشف رشفة خمرية يستلذ بالقبلة الحارة.

تأخذ اللقافة الدخانية من بين أصبعيه وتوجهها إلى فيها وتشد
نفسا منها وتزفره وهي تنظر له وتقول:

- غالى وسجايره غالية

تداعبه وهو مازال عابسا؛ لم يغفر لها ما أغضبه منها. يبدو
أنها ارتكبت إثما عظيما، هل أحد يدري ما فعلته هذه المومس؟
إن ذنبها أنها لم تقدم له التحية كبقية العبيد من الخدم
والحشم، كان يريد لها أن تأتيه منحنية الظهر

- عيب عليك يارجل إن فعلت لتدلتي نهداها أمامه!!

ينفت غبار لفاقته ويسألها:

- انتِ ليه مجتيش سلمتى علىّ؟

ردت بدلال مصطنع:

- ماعلهش ماكنش ينفع، الليلة فى حد مهم موجود

ينتفض من ثملته ثائراً:

- حد مهم، أهم منى مين دا؟ أنت نسيت أنا مين؟

ثم يمسك بمؤخرة رأسها ويهمس فى أذنها:

- انتِ ملكى أنا، فاهمة؟

بالدلال المصطنع تنثنى برأسها على صدره لتهدئ من غضبه:

- باشا ابن باشا البلد كلها ملكك .

يقف أمام المنضدة وبصوت غليظ هامس خارج من بنية جسدية
ممتلئة صلعاء الرأس ووجه مستدير نافر، يرتدى بذلة كحلية
اللون وقميص وردى خالى من رابطة العنق، بجواره اثنان (بودى
جارد):

– مصطفى باشا ازى معاليك وأخبار الباشا الكبير آه؟

هذا الصوت الغليظ جعلها ترفع رأسها من على صدره حياء
«الست محترمة».

يرد مصطفى باشا وهو يتأمل هيئة صاحب الصوت:

– بخير، تمام أهلا بحضرتك.

– أنا سامح بيه، الباشا الكبير يعرفنى بلغه سلامى.

– يوصل يا سامح بيه، اتفضل كاس.

– لا شكرا مرة تانى سلم لى على الباشا، قالها وهو يمرر
خطواته للخارج.

نظر إليها متسائلا:

– مين دا؟ انتِ تعرفيه؟

هربت عيناها إلى قنينة الوسكى كأنها تذكرت أمرا جللا، ثم
عادت فى صفحة وجهه ونفثت سيجارها وردت:

– دا ياسيدى اللى بيراقب النشاط، من جهة أمنية

– سيبك من الحوارات دى.

قالها وهو يقف ويمسك بكف يدها ليسحبها للوقوف ، يرتفع
بؤبؤ عينيها إليه وقد قامت نصف قومة وتساءله :

- فين هنروح فين؟

يكمل سحبتها وشدها ويجيبها:

- لشقة المعادى .

يتمشى بها للخارج وذراعه الأيمن يستقبل كتفها ملتفا بظهرها
العارى وزجاجة الوسكى فى كف يده اليسرى ، قنينة وغانية ،
إنه الثراء الفاحش فى يد من نسى «الباقية» .

يدير محرك السيارة الهممر مؤذناً لضجيج الموسيقى أن يتسرب
من نافذة الزجاج الأمامى للسيارة الضخمة إلى نسيم القاهرة الساهر
فيمتزج مع أضواء الشوارع الباهتة وأصوات السيارات الزاعقة ؛
لترتسم على صورة رصيف الدائرى نغمة النيل الصاخبة .

تقطع صوت الموسيقى عن أذنيه وتثنى برأسها على كتفه و
تهمس له :

- مش هتجيب لى هدية رأس السنة؟

كانت بوادى عام ٢٠١٥ قد أقبلت ومراسى النيل تستعد
للاحتفال بعيد الميلاد ، يميل برأسه كيلا لتلامس لمتة فروة شعرها
الموج على صدرها البارز وكتفها العارى :

- من عينى يا حبيبتي ، بس عينى راسك عشان الطريق .

مرت السيارة من أمام المحكمة الدستورية قبل أن تقف إطارتها

تحت برج من عشرة طوابق يبدو ديكور وجهته أن معمره من الطبقة رفيعة المستوى المميزة فى بلدنا مصر الحبيبة- المحروسة بأولادها.. العالية بأبراجها وبنياتها الضخمة. أمن هذه الصرح (البرج) على الأقل خريج لغات وترجمة.

يولج مصطفى الكارت السحرى فى فرجة المصعد ليرتفع بهما إلى الطابق الثامن، شقة مصطفى باشا الثرى الفاحش على يمين المصعد بعد أمتار من المر، باب الشقة أسود اللون هيكله من خشب إيطالى الصنع مصرى التركيب، سعر الباب كفيل بأعالة نبيل الفقير وأمه المريضة حتى ينقضى نحبهما. الشقة عبارة عن فردوس من الأثاث الخشبى والديكورات الهندسية والبهارات المعمارية.

يدخلان الشقة ويصطحبها إلى غرفة النوم ليكملا السهرة بغنوة الشهوة ولحن السكر، وعزف اللذة.

* * *

خالد (٤)

يستيقظ خالد من نومه مع دنو الغسق يستند على جدران الصالة يقصد الحمام يتخبط كما السكران - النوم فى تلك الساعة مؤرق- دلف الحمام الذى يكسو جدرانه السيراميك المهشش، ينزع ملابسه وسط حالة من السكر النومي، بأنامله لف رأساً معدنيا يسارا فتهدل ذرات المياه من أعلى منصبة من فوهة الدش على فروة رأسه وتتوزع على بقية الأعضاء سالكة طريقها إلى بالوعة الحمام، يترك آثار الضرب والتعذيب والأرق تنزل من على جسده المؤرق مع قطرات المياه الباردة جسده بدأ يشعر بالانتعاش، أعاد لف الرأس المعدنى قبل أن يمسك بالمنشفة ويمسح ما تبقى على جسمه من قطرات متناثرة كالندى على أوراق التوت.

ارتدى جلبابا بنصف كم، ثم توضأ، بسط السجادة وانتوى الصلاة «الله أكبر نويت أصلى الصلاة الفائتة» ثم صلى صلاة يومين فى آن واحد، ختم صلواته بدعوة ثابتة على لسانه مذ عشرة أعوام لم ينقطع عنها سوى عام واحد ثم عاد لها بعد ٧/٣ وأضاف لها بعض الإضافات الدعوية المواقبة للأحداث السياسية حينها.

وميض على شاشة هاتفه (البطارية ممتلئة يرجى نزع الشاحن من المكبس) ٤ مكالمات لم يرد عليها ثم رسالة قد بلغت الحد الأدنى للمكالمات التي لم تصلك، عبث بالهاتف لينتهى عبثه بجارى الاتصال بمحمود إخوان، يقطع صوت الكول تون صوت محمود: السلام عليكم ورحمة الله

- وعليكم السلام ياشيخ حودة ازيك.

بصوت فخيم يرد:

- بخير أنت أخبارك إيه؟ ولاد (الي... الي) سابوك أمتي؟

- النهاردة الضهر.

حمدلله على السلامة يا بطل، ماشوفتش حذيفة وابراهيم؟

- لا، ليه؟

أخدوهم ولاد (ال... الم...) برضه فى نفس الحملة بس لسة ماجوش، الله ينتقم منهم.

- ومنكم.

- الله يسامحك، على العموم خد بالك من نفسك الأيام الجاية

عشان فى جديد.

- ولله ما شايفلها جديد ولا شايفلها أي حاجة.. ويبقى الوضع

كم هو عليه !

- إيه انت يئست يا أخ، احنا مكملين للآخر.

- وأنا جبت آخر!! وبلاش والنبى كلمة أخ؛ دى اللى موديانى
فى داهية ياعم دول بيحسبونى منكم.

- ما الأحرار دى الوقت بقم كلهم إخوة.

- الله يسامحكم انتم السبب فى اللى احنا فيه .. ركبتوهم
علينا بغباءكم، الله يخيبكم عاملين فيها أنتم اللى فاهمين وغيركم
بقر وأنتم عايزين تسوقهم لطريقكم .

غضب الشيخ محمود من سخط خالد على جماعته واتهامهم
بالتقصير أو الغباء السياسي فرد:

- احنا ما لقيناش الناس اللى ممكن تكون قد المسؤلية قلنا
نشلها أحنا

فعقب خالد بسخرية غاضبة:

- طيب وشلتم النيلة.. وشيلتم الشعب معاكم .. وضحك ساخرًا

- خد بس بالك من نفسك سلام، سلام.

لم يترك الهاتف وأعطاه إشارة بث الاشارات، جارى الاتصال

نجلاء ممرضة

المستخدم مشغول ..

وضع الهاتف على الكوميدينو وقصد المطبخ:

- فين الشاى فين الشاى؟ قاتلهم الله! على رأى الشيخ محمود؛
المطبخ ماسلمش من عبثهم الأمني، ثم أخذ يعيد ترتيب المطبخ
وينقذه مما أصابه، أوقد شعلة (البوتوجان) تحت غلاية الشاى

سمع صوت هاتف يناديه فوضع الكوب بعدما رشف منه رشفة
لم تبلغ حلقومه.

- ألو مين معايا؟

- أستاذ خالد؟

- نعم، مين حضرتك؟

- أنا إبراهيم « أخو » (سالم) اللي أنت وديته المستشفى وعايز
أقابل حضرتك..

أزكت جملة الأخير نبضات قلب خالد وانتابه شعور متناقض،
فى وهلة شعر بالخوف والراحة معاً «عرف أنى اللى صدمته
وهيعمل لى قلق، لا ممكن هيشكرنى ويرحمنى من أخوه بقى لا
مش عارف».

هذا حوار مع نفسه قبل أن يكرر المتصل:

- ايوة يا أستاذ انت معايا، سامعنى الو،

- أيوة مع حضرتك الساعة تلاتة بعد الظهر هاقابلك فى
المستشفى.

المتصل:

- ليه فى المستشفى؟

- بالمره نشوف أخوك؟ أخوك أنت قلت اسمه إيه؟

- سالم.

- بالمرّة نشوف سالم.

- لأ، اصل احنا روحناه

«روحناه» هذا الكلمة التي روّحت عن خالد وتنفس الصعداء
« روحنا كله يرقص ونجحنا كله يرقص » هكذا طربت مشاعره
حالا سمع تلك الكلمات وهذا ما كان يمليه عليه شعور خالد.

- خلاص شرفنى فى شقتى خد العنوان.

انتهت المكالمة.

* * *

التدبير الخفى و (سلطة المال ٣)

كان كما ولدته أمه فى غرفة أحد فنادق « هوتل روئششايلد »
تل أفيىف يتجرع قدحه وهو يقرأ تسلية للوقت مجلة (معاريف)
حين زعق هاتفه بتسلم الأيادى :

- ألو.

- أهلا سامح بيه ، أنت عامل إيه؟

- بخير ياباشا ، إزى معاليك؟

- تمام.

- أخبار ولاد العم معاك إيه؟ عرفت أنك عندهم من امبارح ،
إيه ياباشا زيارة دبلوماسية والا مصلحة؟

يرد: أنت عارف الناس دى ملهمش غير فى المصالح.

يسأل: إيه المرة ديه؟

يرد: شوية عقاير عشان الشباب وانت عارف شبابنا بقى.

يعقب الكلام ضحكة من الطرفين :

- على العموم ياباشا كان فيه موضوع عايز أكلمك فيه ضرورى.

- خير ياسامح : ايه الموضوع؟

- المينا بتاع حضرتك اللي مصطفى ابن سعادتك .

- ممم .

- بيديرها، طلع منها من كام شهر مركب وعليها شباب من اللي بيهاجروا اللي مهووسين بحتة السفر لأروبا، والأيام الجاي أنت عارف لا تسمح باى غلطة، الانتخابات داخله ومش عايزين شوشرة أنت عارف الجزيرة والأناضول الأيام دى مسلطين نفسهم على الحاجات دى قصص اللاجئيين السوريين والأفلام الوثائقية، لو رحلة طلعت من حدودنا مش هنسلم منهم.

- ممم

- فياريت ياباشا الأمر دا لا يتكرر، جات لنا أخبار أن فى المينا شخص اسمه (شكرى) هو اللي بيباشرها، الظاهر أن ابن حضرتك مشغول، فلو الأيام الجاية محتاج تتفرغ لمصالحك وشركاتك مافيش مانع أفضل ما يحصل اى حاجة تسبب للجميع قلق، دى رسالة، مش كلامى معاليك واظن الرسالة وصلت؟

- OK، OK وصلت.

بصوت هذب الغل والحنق:

- آه فى موضوع تانى.

.. -

- من كام يوم كنت فى شارع الهرم ولقيت مصطفى (والسنيورة) كانت لافة حوليه زى الأفعى يا باشا البننت دى كارتها اتحرق مهمتها انتهت لخص وانهى.

يرد وسيوف الغيظ تغزو جنباته :

- تمام تمام، يومين وأنهى كل حاجة، سلام .

رد المتصل سلامه بإغلاق الخط، لم يجد سوى هذا الرد على وصايا المتصل بعدما رأى حجمه السياسى والعمرى تضائل وانكمش أمامه بسبب طيش ابنه وسوء مايفعله، قد سبب له ما يخرجه مع حاشية الملك الذين يتصيدون لبعضهم الزلات والأخطاء لينهالوا على صاحبها كما الذئب تنقض على الفريسة، لا مكان للعاطفة، المصلحة أولاً.

هذه المكالمة أخبرته أن يقطع زيارته لأبناء العم ويحجز أقرب طائرة للعودة لأرض الوطن، سالما .. غانما بالعقاكير والغضب محملا.

أشباه أحياء (الفقره)

يقعد كعادته - التي فترتها بطالته - على طرف الكنبة التي يعتليها شباك الغرفة، الشباك الذى يطل على الشارع، تلك الكنبة التي يستقبل عليها زائريه وضيوفه، النادر وجودهم - فمن سيزور هذا المنعدم الفقير - ينام على الكنبة ليلته ويجلس عليها نهاره، يستند بخده الأيسر على راحة كفه، عيناه تبيغ في خياله فهوي يرسم لنفسه حياة أخرى غير التي تأسره فى حجرتين يعانى الفاقة وسغب العيش بين جدرانها.

- نبيل.

- أيوة ياما.

- مالك يابني، سرحان فى إيه؟

- لا مفيش.

- أنت من ساعة ماجيت من عند المعلم (جاويش) وانت قاعد

مع نفسك وسرحان فى حاجة؟

ينظر إلى أمه، يتنهد ويرد:

- لا ياما قلت لك مافيش.

- يا بني، أنا حاسة بيك، قلبي يا ضنايا، فضفض لي إيه اللي
جواك مزعلك!

يرد بضجر من فضول أمه بكثرة السؤال:

- ياما سبيني لحالي، أنا كويس!!

قالها وهو يقوم من جلسته ويقف ويربع مرفقيه على جلسة
الشباك، يطل بناظريه اللي ساحة الشارع، الشارع الذى لم يجف
ثراه من فيضانات الصرف الصحي، الحال لا تسر. يحدث نبيل
الشارع فى سريرته: أمتى بقى أشوفك لآخر مرة وانا شايل
الشنطة وماشى؟

يتأمل نبيل الوجوه التى تسير فى الشارع عله يرى أحدًا
ممن يقصده بسيجارة، تهرب عيناه إلى السماء يبدو أنه يئس أن
يستلقف من يقصده بسيجارة، ينزل عينيه من صفحة السماء ذلك
الصوت الخشن:

- نبيل، يلا.

- إيه أستاذ (وليد) ازيك؟

- إيه ياد مالك؟

- ما فى..

يقطع صوت نبيل:

- ازيك يأم نبيل، عاملة إيه؟

- الحمد لله، ازيك أنت وازى العيال؟

- كويسين .

همس لنبييل :

- حصلنى على القهوة عايزك فى موضوع هاكلمك فيه .

- هات سيجارة طيب .

- على القهوة .

قالها بعدما سار خطوتين .

- ازى مرات أخوك؟ ولدت ولا لسه؟

نبييل وهو يتجه للباب :

- مشى ياما ماسمعيش .

- كنت عايزة أعرف مرات أخوه عملت إيه؟ كانت تعبانة

وماقدرتش اروح أشوفها .

نبييل أثناء فتح الباب متيمناً المقهى ليعرف ما الخطب من

صاحبه :

- هسألها عن مرات أخوه وابقى أقولك .. أنا شوية وراجع

، وخرج من حجرتيهما مثل الفأر الذي ينبثق من جحره .

على ناصية الشارع قرب الأتوستراد ثمة مقهى يعج بجاليسه

أصحاب الجلاجيب الفلاحى والشوارب القاتمة والخواتيم الفضية

وغير الفضية ، تلك هى الملامح التى يعرفون بها أينما ذهبوا ، أهل

الصعيد (المعلمين) ، وهناك الشباب الذين ليس لهم نشاط سوى

لعب الدومينو واحتساء المشاريب على حساب من تقفل عليه

أدوار الدومينو، وأحيانا تجد بين هؤلاء الجالسين من هم تخرجوا من الكليات وينتظرون التعيين الحكومى منذ أعوام حتى نسوا من أى الكليات هم تخرجوا. !! قهوة المصريين شاي بحليب، وسحلب وأحجار تفاح، وماشة وكوباية زجاج، وأحجار دومينو على كراسى خشب أو حتى بلاستيك، وشاشة عرض لزوم الماتش دورى الأبطال حيث الإذاعة الحصرية لقناة الجزيرة العربية، واحتشاد المصريين على المقاهى فى جموع بالآلاف.

كان يجلس فى ركن أول المقهى حين تعقبه نبيل، يرتدى قميصا كروهاات فى العقد الأربعين، وسيم بعض الشيء لأنه يخلو وجهه من علامات الجودة لتلك المنطقة (البشلات) أملس الوجه من الشارب والذقن، دبلومة صنایع؛ لذلك ينادونه الأستاذ (وليد).

يطرقع بكفيها فيأتى نادل القهوة، ذلك الشاب الثلاثينى الأقرت:

- أؤمر يا أستاذ (وليد).

يأمر الأستاذ وليد.

- أتنين شاي واحد ناقص سكر وحجرين تفاح، أزى والدتك يا نبيل؟

- أهو كل يوم المرض بيتعبها أكثر وأنا مش عارف اعمل لها إيه!

-هى لسه نوبة السكر بتجى لها؟

- بتجى لها بس مش على طول

- على فكرة كلمت لك (بطرس) اللي شغال فى التامينات الصحية عشان يخلصها الورق بسرعة ولاد الرخمة بيققوا الورق عشان ختم ملوش لازمة.

- هو عمل إيه لحد دى الوقت ؟

- أهو بعته الشؤون ولما يجى تاخذ أمك وتروح تكشف.

يأتى نادل القهوة بصينية صدئة، عليها القدحان الخمسين وكوب أكبر به مياه يكاد اللون الأصفر يظهر بها فضلاً عن الطعم والرائحة، وضع الشاي والمياه على المنضدة الحديد وذهب ليأتى بأحجار التفاح.

أمسك بالمعلقة التى جار عليها الدهر فتعرجت بعد استقامتها واسود لونها، بحركة دورانية فى جوف الكوب يربك سكون حبيبات السكر فى القاع لتذوب فى الروابط الكميائية بين ذرات المياه، بعدها يصطاد الفقاعات من على وجه الكوباية بغرفة المعلقة همس لنبييل قائلاً:

- الموضوع اللي عايزك فيه محتاجك تركز وأنا باكلمك دا مستقبلك.

أتى النادل ووضع بجوار كل من نبييل والأستاذ وليد مدخنة الشيشة (النارجيلة) ورحل .

شد الأستاذ وليد نفسا ونفته فى الهواء وأردف:

- أنت معاك فلوس يا نبييل؟

نبييل مازال يقلب حبيبات السكر لتذوب فى محيط الكوب حركة الذوبات تطلب من نبييل حركة دروانية أكثر من جليسه

لكوبه لأن نبيل يشرب زيادة سكر، رفع الكوباية الخمسين إلى فيه وارتشف يتأكد من نسبة زيادة السكر بها ثم وضعها مكانها وهو يرد:

- ليه يا أستاذ وليد هي التأمينات عايزة فلوس عشان الورق؟

- لأ يا نبيل. دا موضوع تانى خالص سيبك من التأمينات خالص هيخلص بإذن المولى.

- أمال إيه؟

- انثنى إليه بجانب رأسه حتى كاد أن يلامس لمته، وقال:

- سفر!

ثم بلغة الناصح الأمين:

- أنا عارف ان الشغل معاك متأزم ويوم تشتغل وميه لأ، وأنت مالکش فى المعمار صحتك مش مسعداك، والحساسية يتزيد عليك من المونة اللي بتشتغل فيها، ثم ارتشف بق شاي تاركا عقل نبيل يذوب فى ترجمة الكلمات.

سفر سفر، هذه الكلمة التى توقف عندها عقل نبيل من بين تلك الكلمات المسرودة من جليسه كأن نبيل لم يسمع عن السين والأف والراء مجتمين قبل سابق.

هذه الكلمة جاءت مواكبة لأفكار تحولت لمشاعر تنتاب نبيل منذ أيام.

كم فكر نبيل فى تلك الأيام فى حالة المتعسر ومرضى أمه المنقر؟
راودته فكرة البحث عن حل يخلصه من قبضة الفقر وينقذه
من أنياب الضيق.

– أنت بتتكلم بجد يا أستاذ وليد؟

ضغط بالماشية على الجمر ليزيد من تفاعل المعسل مع شهيقه ،
شد نفساً ونفخه من فتحتى خياشيمه غباراً أسود كثيف تبعقه
نبيل بأنف معتادة على عبق المقهى الذكى.

– عيب يا نبيل ، فى واحد اتعرفت عليه فى الشغل بيسفر
الشباب من اسكندرية فى المركب. شدّ نفس .. سفر ناس كتير ،
وانا عارف ناس منهم سفروا ورجعوا معاهم فلوس وعملوا بيوت
واتجوزوا وبقوا أغنى من المتوظفين فى البترول وحالهم بقى
مترسماً عالآخر

نبيل الذى كان يتقرب أحدهم ليصطاد منه سيجارة – يضبط
بها (الطاسة) تغافل عن حجر التفاح حتى انطفأ .. ونسى
الشاي حتى برد.. ، يستمع وكله أذن مصغية لكلمات بدت كأمل
يجالسهما.

– دا اللى أنا مستنيه والله يا أستاذ وليد حاجة زى دى ممكن..
ويهز رأسه أفقياً ويتنهد :

– دى فرصة يانبيل ماتتعوضش دا انا فى يوم كنت قاعد مع
واحد من اللى ابن عمه سافر قال لى على حاجات خد شهيق
وزفير ثم غبار أسود يتعقبه رشفة شاي حاجات... ، قال لى : إن

ابن عمه سافر إيطاليا ورجع بعد تلت سنين اشترى القيراطين الأرض اللي قدام بيتهم ورمى الأساس وطلّع بسم الله ماشاء دورين تشطيب م الآخر يامعلم، وستّر اخواته البنات وطلّع أمه الحج وأمّه قالت له :

- يا بنى أقعد وأجوز.

قال لها :

- هسافر.

أشار بيده لنبييل

- أصله شاف هناك اللحم الأحمر .. ابن عمو قال لى انه مظبط مع بت إيطاليا ثم بنبرة تحسر وندم : جواز إيه دول اللي هنا! فرز عاشر. نبييل بلع الكلمات برشفة شاي وهو يحدق فى وجه الأستاذ وليد ،يركز فى الكلام كطالب ثانوية فى مراجعة ليلة امتحان الفيزياء.

- غيّر الحجر ياكبير (قالها للنادل).

- تؤمر يا أستاذ وليد.

- طب السفرية مش محتاجة ورق وكلام من دا يا أستاذ؟

- ولا أى حاجة من دا ، محتاجة فلوس بس وتوكل بروح قتالية.

هرش نبييل فى ذقنه الأيسر وضيق عينه وقال :

- كام كدا؟

- ماعرفش والله يا نبيل، بس شوف أنت لو ممكن تس...،
شهق نفسا من الشيشة وضغط بالماشة على الجمرة ليفعل الحجر
الجديد، افر، لو ممكن تسافر؟ هاسألك عن المبلغ، بس أمك يا
نبيل عيانة مين هياخد باله منها لو حصل نصيب وسافرت؟
يشير بيده تجاه رأسه كأنه يهش ذبابة يعنى أنا قاعد معاها
عملت إيه يعنى؟

- دا انا عالة عليها لا شغلة ولا مشغلة، شوف لى بس الراجل
دا بس عشان خاطرى وحياة بنتك.
قالها بنبرة ترجى واستعطاف .

- ماشى يا نبيل بس موضوع الفلوس هتصرف فيه ازاي دا
برضه على الأقل مش ممكن يقلوا عن عشر تلاف جنينه على
ماباسمع .

- ع. شرر تلااف جنينه كثير!!

- انا مش متأكد بس باسمع، وعلى العموم ادينى هاشوف
الرجل وأسأله.

طرقعات باليد يأتى .. نادل القهوة فيدس فى يده ورقة نقدية
ويدعه يرحل

سلطة المال (٤)

«أهلاً بكم في مطار القاهرة الدولي»

موكب السيارات كان ينتظره، وفي طريقه إلى مثواه، قبل أن يدار محرك السيارة هاتف ابنه مصطفى.

موجات الهاتف توقفه قبل أن ينزع عن نفسه ما يحل إزارًا، كان على استعداد لإجراء عملية من عملياته المدنسة، رمق الهاتف وقال بامتعاض:

– مش وقتك خالص يا بابا.

بنبرة متخشنة من حمية الغضب:

– تعال بسرعة حالا مدينتي عايزك ضرورى مسافة الطريق تكون عندى.

– ليه فيه حاجة؟

– قلت لك مسافة الطريق تكون عندى، سلام .

نفخ مصطفى باشا بغضب وألقى بهاتفه.. وأخذ يرتدى ما نزع من سترته وهمس لأحدهن ما فحواه:

- رايح مشوار ضرورى

ستظلين محافظة على بكارتك حتى نلتقى.

نجت تلك الزجاجة من الفض مؤقتا، سيارته الهمر موديل السنة لم تستغرق كثيرا لتوصله إلى مدينتى «مدينة عالمية على أرض مصرية» مدينة يمتلكها شخص ومعه شركاؤه بمال مصر، هذه المدينة التى بناها عمال مصر أمثال نبيل والمعلم فريد وأولئك الذين انقلبت بهم السيارة على الدائرى وغيرهم ممن يبنون.. ويشيدون.. ولا يحظون بشيء مما يبنون أو يشيدون، يحملون كتل اللبنات والملاط على عاتقهم وكلهم يتساقطون ضحايا وصرعى عمل وأجرهم بخس جنيهاً معدودات.

أمام فيلا ذات ترقيم «٤٤» كان يرتدى قميصاً أزرق ورابط عنق نفس اللون وبنطالون أسود. ما أن رآه قادماً قدّم التحية على غرار التحية العسكرية، هذا الشاب الأمنى لم ينحن كأمثالهم لمصطفى باشا، فهل سيغضب منه؟

لم يغضب منه ولم يعبأ حتى بوجوده وهرع إلى داخل جنة أبيه وفردوس نزله (الفيلا)، فى الداخل كان ينتظره وسط الخدم والحشم :

- مصطفى اللى أنت بتعمله دا مش كويس هيسبب لى قلق.

سأله بتأفف:

- إيه اللى حصل.

- المينا أنت سايبها لشكري يباشرها وشكري بيطلع مراكب
للسفر ودا مش مطلوب الأيام دي، ركز يا ابني معايا شوية،
وبالنسبة للبنت اللي لافة حواليك زي الأفعى وهتطولك بسمها،
دي خلاص كرتها اتحرق، وريحتها فاحت . همّ مصطفى أن يتكلم
فعاجله أبوه في غضب :

- أنت ما بتدخلش على النت، العيال ولاد الحرام بتتوع
السوشيال والفييس بوك بشيرولها فديوهاها مع الباشوات وأنا
مش هاسمح لحد يمسك على حاجة احنا يا حبيبي في معسكر
ما بيرحمش كله بتاع مصلحته ومستنى يدوس على التانى ويمسك
عليه غلطة، فهمت ولا محتاج خبطة عشان تصحى للى انت
بتعمله، قالها وعيناها تتوعد بالحذر.

لم ينبس ببنت شفه. سمع منه ما لقنه إياه، وانصرف في
حالة من الضجر والتأفف بسبب ما شعر به من تكبير لأفعاله
وحرية تصرفاته.

أشبه الأحياء (الفقر)

بعد خمسة أيام من جري التفاح والكوباية الخمسين، تذكر
أمر نبيل فسلك يده في حيب الجبردين فأخرج هاتفه وأرسل
موجات هاتفية لأحدهم

يومض هاتفه فيرد:

- ألو.

- أزيك يا أستاذ بشير .

- أهلاً يا أستاذ وليد.

أستاذ وليد بشيء من المجاملة:

- أخبارك إيه وبنتك عاملة إيه؟

- بخير،

باقول لك.

- قول.. أتفضل .

- موضوع السفر اللي كنتم بتكلموا فيه ، عندى واد فى الشارع
غلبان وحالته شرش لو تكسب فيه ثواب وتشوفوا له سفريه دا
أمه عيانة ومحتاجة بنك عشان علاجها .

يضحك بأريحية جعلت الأستاذ (وليد) ينتابه الشك ورد :

- يا أستاذ وليد مش أنا اللي باسفر!!

- أه ، أمال إيه الكلام اللي سمعته وأحنا قاعدين؟!

- بص أنا هديك المفيد أحسن ، هديك رقم اتصل عليه ، لو
يعنى الواد يهمك أتص...

قاطعته :

- ياعم بثوابه عشان أمه المريضة وهو وحيدها .

- ازاي وحيدها وهيسبها؟! على العموم اتصل على الرقم قول
له إنك من طرف خالد وقول له الكلمة دى (الشنطة جاهزة) .

- الشنطة جاهزة دى كلمة سر.

- آه ياعم الناس بادارى على شغلها .

- هو مين طيب اللي هتدينى رقمه؟

- دا السمسار اللي بيجمع الناس وبيأخذ الفلوس ويشحنهم
ياعم فى البحر وهما ونصيبيهم.

- هات الرقم وخلص.

- أكتب ، وأملى عليه رقم جوال من يريد (الشنطة جاهزة!)

- ... آه، آه، آه اسمه إيه؟

- ناجي.

- تمام..

ماتنشاش تقول من طرف ناجي و(الشنطة جاهزة)

- سلام .

كأن رصيده فى الموبايل ليس إلا هذه الساعة فأردف المكالمة
بمكالمة لناجى الذى سيخبره بأمر سفر نبيل، ثوانى وسمع
الصوت يرد ،فبادر سائلاً :

- معايا أستاذ ناجى ؟

أجاب الأخير:

- آه، مين حضرتك؟

- أنا من طرف ناجي، فيه شاب عايز يسافر والشنطة جاهزة.

- لو جاهز بشنطته.. الأسبوع الجاى يسافر؟

- كنا عايزين نعرف بس الأول التكاليف؟

- هو بلغك ما عرفكش التكاليف ؟

فرد بالنفي :

- ماسألتوش.

- طب بص، جهز عشرين الف وكلمنى.

- سلام.

- سلام.

بعد انتهاء المكالمة راح الأستاذ وليد يتحدث مع نفسه كيف لهذا المعدوم أن يجمع عشرين ألف جنيهه : «دا الشارع اللي عايش فيه كله على بعضه لو نفضوه مش هيجمع عشرين جنيهه» فى الليل قصد بيت نبيل ليخبره بالأمر أو بالأحرى ، يعجزه عن الأمر.

- طب والعمل يا أستاذ وليد، عشرين الف - يانهاار أسود-

ليه أنا هسافر فى طيارة هليوكوبتر؟!!

- مش عارف والله يا نبيل، أنا قلت الموضوع أخره عشر تلاف

فى الحدود ديه، بس بينى وبينك لو سافرت سيبك من العشرين ألف، هتترستق معاك ع الآخر، ثم أخذ يسرد له قصص الذين هاجروا إلى الفردوس الأروبي وعادوا محملين بالخيرات لأهليهم وذويهم، قصص سمع هو بها - فى مصر الكل يحكى - يسمع نبيل من الأستاذ وليد قصة محمود الذى هاجر وعاد واشترى ميكروباص واشتغل على الخط .. وكريم الذى بنى عمارة بعدما جمع مالا وفيرا من العمل فى إيطاليا وغيرهم ممن بنوا وشيدوا واشتروا وتزوجوا .. قصص سندها (النقل)، حدثني فلان عن فلان وعن .. وعن .. وعن لم يدركوا أبطال قصصهم، ولا أحد يعرفهم!! .

نبيل يفتح فاه أثناء سرد الأستاذ وليد - مثل الطالب حين

أول درس الفيزياء - اقتنع أكثر بالسفر وتلاشت عنده معوقات العشرين ألف جنيهه ورآهم كأنهم ألفا جنيهه وسيحاول ويجمعهم وما أبسطه نبيل ؛ معضلة النقود تلاشت عنده وانحلت عقدها

وأصبح من اليسير أن يسافر، أن يصبح ممن يشيدون ويشترون ، أو يتزوجون .. أن يصير - يوماً ما- من تلك الأبطال التي يحدث عنها فلان عن فلان !!

بعدهما فرغ جليسه من قصص الأساطير ،سأله نبيل وكله أمل ورجاء:

- أنت شايف يا أستاذ وليد ممكن أجمع الفلوس ازاى؟
انصحنى يا صاحبي،

الأستاذ وليد تأخذه عظمة الناصح وخيلاء المسئول ويمد كتفه،
لقد طلب منه النصيحة ،فيرد:

- بص يا بنى أنت تحاول تمسك إيدك فى المصاريف شوية ودوس فى الشغل يانبييل، تعالى على صحتك وموت نفسك فى الشغل فى المعمار.

نصحية مقبولة نسبياً، يموت نفسه فى الشغل ممكن - لكن كيف أيها الناصح من التقشف، كيف يمسك يده فى المصاريف وهو فى الأصل لا يصرف شيئاً لأنه لايملك ما يصرفه؟!!

ظل نبيل يفكر ما هذا الشغل الذى سيموت فيه نفسه حتى يجمع العشرين ألف جنيه؟ ما الحلول المتاحة وغير المتاحة؟ نبيل ليس طياراً ولسانه لا ينطق بسبع لغات حتى يعمل بالنهار ويرتزق من الترجمة بالليل، نبيل مجرد عامل فى المعمار ماهيته لا تتجاوز الجنيهات المعدودة فضلا عن لياقته البدنية التى لا تساعده على الاستمرار فى العمل المعمارى الشاق.

بعدما أرهق ذهنه وكادت رأسه تنفجر صداعا ليس من التفكير
إنما الأريفة محتاج سيجارة يظبط بيها (الجمجمة) أفنع نبيل
نفسه أن يطلع شغل المبيت فى المعمار، هذا هو الحل، المعمار
هو الحل ، كل شقاء وكله ذل ، لكنه بات لنبيل « الحل »
اليومية فى المبيت غالية ، ويضمن من نفسه الاستمرارية.

بعد الركون لذلك «الحل» ، الحل الاضطرارى بدأ نبيل يبحث
عمن يأخذه معه شغل المبيت ، أجرى اتصالاته القليلة واستعان
بعلاقاته المحدودة، حتى وجد المعلم فريد الذى كان يعمل
معه سابقا سيذهب للإسكندرية بالمدة اتفقوا ونبيل على السفر
للإسكندرية معا اتفقوا على المدة خمسة عشر يوما والماهية ثمانون
جنيها، شاملة مصاريف الطعام والشراب ز

والإقامة ؟ سأل نبيل المعلم فريد ، فأجاب الأخير فى يسر :

– بعد الفراغ من العمل بيتشوف ركن تنام فيه يا معلم

– أمين يا معلم.

رد نبيل (المعلم)

– أمين يا معلم.

– طالعين بكرة، هنمشى الفجر .

– ماشى يامعلم فريد.

خالد (٤)

فى الميعاد تقابلا وتعارفا، وتجاوزا، وكل منهما قال للآخر:
أنا سعيد بمعرفتك.

خالد:

- مافيش داعى واللّه اللى حضرتك بتعمله دا. احنا ماعملناش
غير الواجب وعينه لم تزغ عن الكيس الذى يضع فيه أخو
المصاب النقود التى يردها لخالد.

ابراهيم أخو المصاب شاكرًا خالد :

- لأ، دا حقك وكتر ألف خيرك - واللّه أنا لو مش محروج من
حضرتك وخايف تفهمنى غلط كنت زوتهم.

خالد لسان سره يقول: ياعم مش هافهمك غلط دا أخوك
عطلنى به وضيع علىّ السفرية. ولسان جهرهه يقول:

- خلى عنك خالص،

أخو المصاب وهو يهم بالرحيل :

- أستأذنك أنا بقى.

وقام يبسط يده لمصافحة خالد، خالد يصافحه ويتجه نحو باب الشقة ويقول:

- شرفتني الشوية دول رغم أنا ماعدتش وماشربتش شايك.

- سلاموا عليكم، وهو يدير ظهره لخالد:

- آه يبقى بلغ سلامي للراجل اللي كان معاك فى المستشفى،

الدكتور بلال هو دكتور فى إيه؟

خالد يتذكر:

-آه، دكتور فى إيه؟ يتذكر ملياً ويرد:

- فى التنمية البشرية.

- يعنى إيه التنمية البشرية؟

القطعة سحبت كيس الفلوس بأسنانها ظناً منها أنه كيس

لحمة، حرامى تسلق على المواشير وخطف الفلوس وهرب.

- ما تمشى ياعم الحاج بقى.

هذا ما قاله خالد فى سره وهو يرد على سؤال صاحبه:

- التنمية البشرية يعنى تحلل الناس وتكشفهم.

عقد الأخير حجباه وسأل مستبيناً أكثر:

- ازاي؟

خالد فى داخله: الله يحرق التنمية البشرية والدكتور بلال

واخوك اللي فاقد الذاكرة الله يلعن اليوم اللي شفتك فيه تولعوه

فى يوم واحد: يعنى تحلل الشخص الذى قدامك وتعرف هو
بيكذب ولا لأ!!

هذه الإجابة شعر السائل أنه دخل منطقة قد لا يستوعبها
ففضل أن ينسحب بشياكة:

- فرصة سعيدة يا أستاذ خالد، سلاموا عليكم .

لم يرد خالد السلام وأغلق الباب حتى لا يعود فيسأله عن
ازاى بيكذب؟ احتضن الكيس الذى يغلف العشرين ألف جنيهه
التي دفعها لعملية المصاب احتضنها كأنه يحتضن ابنه العائد
من العراق بعد عزو الأميركيان، يفرح فرحة جمهور الزمالك بالفوز
بالدورى «وقبضنا كله يرقص» .

خالد أغرّه شكل الفلوس فاختلى بها فى غرفة النوم، انكفأ
على سريره وبدأ يداعب الأوراق المالية بعدها، وهو يعد الأوراق :
هااجر هااجر ماعلهش يا أم الدنيا مضطر اسيبك وامشى بعد
فلوسى مارجعت «أهاجر واسيبك لمين » هز رأسه رأسيا وقال :
أنت طيب يا اسامة ياعباس! الحاج بخيت لما كتب الأغنية
دى كان مقيل تحت شمسية فى العين السخنة، (أهاجر واسيبك
لمين، وانت غبية واللى حاكمك عميل، أهاجر واسيبك لمين،
لصباع الكوفتة وجهاز فيرس سى).

- إشطة طب ما انا باقول اهو، ! سيبنى من أم الدنيا واتصل
بالدكتور بلال أبسطه معايا شوية واشوفه فين؟ تلاقيه بيحلل
لحد وبيقول له على اللى جواه، الراجل دا ساحر!

- الو، دكتور بلال ازيك، انت فين؟

ضحك وعقب :

- الله يجزيك ، لما نتقابل ، سلام .

خالد بعدما سَلتَ ورقتين بمائتين من الرزمة :

- الواحد ينزل بقى دى الوقت يشبرق نفسه ونجيب حاجة

نعملها غدوة بكرة للضيف اللي جاي.

قابل الشيخ محمود فى الشارع ، بعد المعانقة التقليدية والسلام :

- إيه رايح فين يا خالد؟

- راياح أجيب كيلو سكر.

- واخذ فلوس بزيادة ولا لأ؟ أحسن السكر غلى ، زى كل حاجة

ما بتغلها!

- أوعى تقولى المكرونة كمان غليت؟

- هوهووو: المكروونة والرز، والبول والزيت ، والبنزين. واللحمة

والطماطم ، والعنب ..

- أهه : دا باين كل حاجة فى البلد دى غليت!

- بالفعل يا أخ كل حاجة غليت.

يضحك خالد ويردف :

- أهه أمال إيه الرخيص ؟

يرد بحرقه وبجدية تثير الغضب :

- أنا وانت يا مواطن , ثم محثاً خالد :

- بكرة ياخالد طالعين بعد صلاة العصر بلِّغ اللي تعرفه.

يسأل خالد من قبيل السخرية :

- عشان الروز والزيت؟

يرد الشيخ محمود بنبرة شديدة اللهجة:

- عشان البنات ياخالد، والا أنت نسيت؟

خالد يتبرأ من نبرته الهزلية التي كان يتحدث بها ويرد
بحدة:

- يعنى لما احنا نطلع ونعترض بالطريقة دي هيفرجوا على

البنات، ثم يضغط على أضراسه قائلاً:

- يا عم محمود الناس دي مش هينفع معاه الا...

تنهد وتذكر المقاومة الشعبية، سيبنى الله يبارك لك دي الوقت،

أنا نسيت كنت خارج اجيب إيه؟

بعدها ابتعد خطوات عنه أعقبه الشيخ محمود بهذه الكلمات :

- أمال لو ماكنتش لسه جاى من عندهم من كام يوم؟!!

ظل كلام الأخير يشاغب تركيز خالد وهو يتسوق ويبتاع ،

حتى شاء أن أن يفرغ لهذا الكلام مع نفسه

أن تحمل هم قضية .. وفي نفسك إحساس بالعجز.. أنت لست

أهلاً لها !

ابتاع طلباته التي لم تُبق من ورقتي المائتي جنيهه سوى لاشئ، هذا لسد وجبة غداء واحدة لفردين. دخل شقته وبعدهما أودع الثلاجة أمانته لتحفظها له حتى الغدا، ثمّة ركن فى حجرته طالما يستريح ويحدث نفسه فيه.

جلس يتحدث مع نفسه بعدما انتابه شعور التقصير تجاه القضية التي تؤلمه وتألم كل حرّ فى وطنه، ثم محدثاً نفسه:
- إيه اللي أنا قلته دا للشيخ محمود؟ مش معنى انى ما عدت مقتنع بالمظاهرات والاحتجاجات التقليدية، مش معنى كدا أنى أنسى القضية أو أفرط فيها.
هرش فى مؤخرة رأسه:

طب والبنات دى بس إيه اللي يخليها تطلع ما دية حاجة برضه مش كويسة وأنا مش مقتنع بيها، ويقولوا دى وسيلة ضغط، ضغط إيه؟ على أساس أن البُعدا عندهم نخوة قوى!! دى الشرطة ولاد الكل...، بيمسكوا البنات وبيعملوا فيهم اعمال ما ترضيش إبليس! دا ابو جهل كان عنده نخوة ورجولة عن نظامنا، ولا المسيرات اللي بتلف فى شارعنا والشوارع اللي جنبنا، المسيرات دى بتسمع مين!! أخرتها؟ احنا زى اللي بيلف فى ساقية بالطريقة دي! لزمّا يكون فيه حل من خارج الصندوق زى ما بيقول الدكتور بلال، عقاب ثوري، حاجة عنيفة تخوف، مش ننزل نتعبي غاز ونتخرّم بالرصاص ونرجع. دا كلام دا؟! لما اتصل بالشيخ محمود اشوف خريطة بكرة والخطة الموضوعة للدفاع، « هل هي سلميتنا أقوى من الرصاص »، والا «بالروح والدم انزل ياخال وياعم».

هناك تجمع شبه سرى كان الأخوة يتناقشون ويتحاورون فى أمر
المسيرة ويستعدون لمقاومة ردعها ..وردها من قبل الأمن ,بسلميتهم
التي هى أقوى من الرصاص ، الشيخ محمود لإخوانه :

- خالد بيتصل .

أحد الأخوة :

- شوفه عايز أية .. وماتقلش له احنا فين لو سألك ؛ خالد
بقى بيهزر كثير .

يرد الشيخ محمود على الهاتف بعد المداولة السياسية السابقة
مع أخٍ لهم :

- السلام عليكم ورحمة الله ..

- وعليكم السلام ورحمة الله .

- إيه ياشيخ محمود المسيرة بكرة بمشيئة الله طالعة منين؟
الشيخ محمود :

- زى كل مرة يا خالد من الجامع بعد الصلاة بإذن الله .

خالد باستفهام يشوبه الضحك :

- أنتم فين دى الوقتِ ، فى الدرة والا السكرية؟
ثم قهقهه .

الشيخ محمود يبدي إنهاء المكالمة بضجر وأسف :

- عايز حاجة ياخالد عشان شكلك عايز تهرج واحنا ماعندناش وقت لتهريجك.

خالد شعر بالخطأ فاستدرك بنبرة متأسفة:

- ماعلهمش ياشيخ ما انا لو ماهرجتش فى البلد دى هانفجر ولا يجى لى جلطة واموت شهيد الصمت.

- سلام نتقابل فى المسيرة.

أشبه أحياء (الفقر ٧)

هناك فى بيتهم كان الحديث بينه وبين أمه فى أمر شغل المبيت، أمه تتبسط الأرض، ترقّع بالخوص القفص المفتول من جريد النخيل وهو يجلس كعادته على كنبته المتهاكلة.

وهى ترقّع القفص:

- يابني، بلاش الشغل البيّات (اى شغل المبيت) وخليك فى تروح الصبح وترجعلى آخر النهار أحسن لك.

هى تدرك أنه عمل شاق وصحة ولدها لا تتحمل مشاقه، كما أنها لا تريده أن يبتعد عنها، نوبات السكر تزورها من حين لآخر.

- ياما إن طالع مع المعلم فريد اللي بشتغل معاه ومافيش شغل تاني، وهى مدة ولا اتنين أعمل فيهم قرش كويس وبعد كدة أشوف حاجة على قدي.

لم يخبرها بأمر السفر.

- خلاص يانبييل، تاكل كويس، ونام بدرى يانبييل ما تسهرش تلعب الكوتشينة والدوماننا.

جمع أشلاء ملابسه فى حقيبة استعارها من أحد جيارنه
وبات ليلته معتزما النية (الاستيقاظ فجرا).

الأم المريضة تقاوم مرضها وضعف بصرها وتقوم كعادتها فى
وقت الفجر، قامت ثم أيقظت نبيل. قام نبيل بخفة ونشاط
أمر السفر هون عليه أمر الشغل. أخذ نبيل حقيبته وودع أمه،
فاستسلمت للواقع المفروض وتركته يحمل حقيبته متدلية على
كتفه الأيسر، ذاهبا لعمله:

- روح يا بنى يوقف لك ولاد الحلال، ويرزقك ويسترها معاك
أنت واللى زيك.

صوت ديك الجيران يهلهل كأنه يودع نبيل هو الآخر ويدعو
له. إنها طقوس الفجر، صوت الديك يقطع خيوط الدجى لبشائر
الصبح الطالع

غادر نبيل ومعه دعوات أمه تصحبه للأسكندرية، ليس للتنزه
أو المصيف والترفيه، أنما للعمل الشاق والأرتزاق العسير، والسعى
وراء حلم طام على مخيلته

سيارة مكروباص ذات سقف عالٍ يستقلها نبيل ورفقاؤه فى
رحلة البحث عن الجنيه، فلتسعد يا نبيل أنت ومن معك؛
كرمت آدميتكم هذه المرة، لم تركبوا الربع نقل، ولكن عذرا لن
تحترم كثيرا؛ العربة عليها أن تحمل عدد أكثر الزحام سيصاحبكم
طوال الرحلة. «افسحوا لأخوكم دا يتحشر بينكم كلنا رايحن ناكل
عيش» قالها المقاول.

ركبوا دون اعتراض سوى استياء بسيط احتواه المقاول، دار محرك السقف العالى إطارات السيارة تصافح الرصيف الذى لم ينشف من الندى الفجري، العمال تتمايل رؤوسهم، وعيونهم تغفو، القائد يستأنس بأذاعة القراءان الكريم على إشارات الراديو من أجل أن يسترها المالك معه، وكلما راح الشيخ فى الإذاعة يتلو الآيات تختفى خيوط الليل على رصيف الطريق حتى وقفت السيارة قرب شاطئ العجمى، الإسكندرية، قد وصلوا إلى ميدان العمل، شاليهات تحت الإنشاء، مهمة نبيل ورفقائه تجهيزها وإتمام إنشائها لأصحابها الأغنياء.

نزل نبيل من السيارة ونسيم البحر يداعب وجهه ويداعب أرق الرحلة فى أعضائه.

– قشظة يا معلم فريد احنا هنشتغل فى الشاليهات دى اللى على البحر؟ أقصى ما يتخيله نبيل ورفقاؤه أن يفعلوا فى مثل هذه الأماكن، وقد عبر سؤال نبيل عن ذلك:

– آه يا نبيل وهنبليط فى المية بعد ما نخلص شغل، بتعرف تعوم على كدة ولا لأ يا نبيل؟

– ما بعرفش بس هبليط، ما تخفش هاجب

قاطعته صوت المقاول:

– يالاً يا معلم فريد أوريك مكان شغلك.

ثم أدخلهم شاليه نصف تشطيب، نبيل والمعلم فريد عرفا مكان عملهم الذى يقضون فيه أيام مدتهم استعانوا على الشقا

بالله عجن نبيل المونة (الملاط) ويناول على الطالوش المعلم فريد ليلطمها بالحوائط بسلاحه المعنى الذى يبرى صحة صاحبه قبل ان ينبرى (الباروة) ويساويها بالذراع الألومنيوم ومن ثم يقوم بتخشينها هكذا دواليك يوميا، يحولون الشليه من هيكل من الطوب الأحمر إلى شاليه جاهز للتعمير والسكنى، كل يوم يفرغ نبيل وزملاؤه من العمل الشاق ينحدرون إلى شاطيء ذلكم البحر المالح الذى يعكس لون السماء الأزرق، يمتعون أنفسهم باللعب والسباحة على جُده، مصيف مجانى ينعم به هؤلاء الذين لا يرون البحر هذا إلا فى مثل هذه الحالة (العمل فقط) عليهم الآن أن يغتنموا هذه الفرصة اسبحوا ماشئتم وابعثوا فى ماء البحر.

وإنهم يا ساحل قد جاءوك معمرين، لا سائحين ولا متنزهين.

رفقاء نبيل يداعبون شاطيء البحر منهم من أخذته مهارة السباحة وراح يستعرض بها، ومنهم من استعان بإطارات بلونية تحمى من الغرق ومنهم من اكتفى باللعب على حافة الشاطيء دون الخوض فى العمق وكان نبيل من هؤلاء الجبناء نبيل ينظر للبحر ويتأمل مداه الواسع، يريد أن يصل بأم عينه إلى الشاطيء الشمالي، يسأل صوت البحر الجارف: متى يا بحر؟

نبيل، ما تنزل يا ض، أنت خايف؟!

قالها وهو يزفر ويلعب برجليه كسمكة البلطى ويداه تجدفان حتى لا يسحبه التيار.

نبيل :

- لا ياعمى أنا باخاف مش باعرف أعوم.

- يعوم على ظهره يبدو أنه ماهر فى السباحة : ما تخفش
تعالى هاعلمك .

- ياعم أنا مبسوط كدا ، المية جية لى لحد وسطى ، وادينى
بابلبط زيكم أنا لزمأً أعوم.

يغطس ويطفو ونبيل ينظر إليه ويقول فى سره : يابن اللعيبة . !!
يقترب ويشد نبيل من يده تعالى ما تخفش.

نبيل يقاوم كأنه سيورده النار :

- لأ يا ياسطى هاغرق هاغرق ، فووو ، فووو

- يا جبان ياض هعلمك ، هتفضل جبان وخايب ، أعلمك
لوقت عوزة

- لأ مش عايز أعوم.

نبيل يتأمل البحر وينظر إليه ويشد شاطيء الشمالى بعينه
ويريه نفسه وهو يركب هذه البحر ويخوض عبابه بالركب الذى
سيكتب له حياة أخرى.

نعم يا نبيل سيكتب لك حياة أخرى أبدية.

أربعة أطفال يركضون وراء شيء مستدير فى حجم حبة
الكنتالوب، وكان أحرفهم يراوغهم كما يراوغ حفر الشارع
ومتعرجاته. هذا الحريف بإمكانه المرور من دفاع إيطاليا إن شاء،
ولو رآه لويس إنريكى لأجلس له ميسى إحطياطياً
- خد يا ابن الشيخ، يا ابن دين...

أخذ الطفل الكرة بعدما ركله أحد الأربعة وسبه لأنه أراد أن
يأخذ كورته.

يرد الصبى وهو يحتضن حبة الكنتالوب الجلد:
- أهو أنت ها...

- هى الخناقة كانت مع ابن الشيخ ياما؟
دنا نبيل بسؤاله لأمه وهو متكئ على كنبته
تتصعب أم نبيل وترد:

- ابن الشيخ إيه يابنى اللى يتخانق ! ربنا يفك زنقنة أبوه،
الواد مالوش فى المشاكل زى أبوه فى حالهم، من يومهم ما
اسمعنا لهم حس، والست من ساعة ما جوزها (تقصد الشيخ)
ما البعدة حبسوه وهى محادية على ولادها، قعدت معاها اطمن
على حالها

ثم وضعت أم نبيل يدها على ذقنها وأكملت:

- الست حكمت لى اللى يقطع القلب: قال قال إيه يا بنى
متهمينوه إنه قتل طباط شرطة وأنه شغال قناص، قناص إيه البعدة
ماعندهمش نظر، ماعندهمش عقل!! الراجل الكفيف قناص ازاي؟!
يسمع نبيل صوتا فى الشارع يسب ويشتم قائلاً: على الطلاق
لاروح أشق ابن..(قذق) واللى هيعمل دكر فى الشارع دا ويحاول
يحوش هاشقه قبله

نظر نبيل من الشباك فرأى شخصا يحمل سنجة كالسيف ووراءه
شباب متسلحين بثتى الأسلحة البيضاء. هاج الشارع وحمى وطيس
حرب الشوارع، وتراشق الطرفان بالسباب والشتائم وتحدثت لغة
المطاوى والسيوف ومعها الشوم والعصا الثقيل، وقذائق الحجارة
من أعلى الأسطح من النساء والصبيان، ولم يكن نزيف الدم شفيعا
لتهدئة الحرب وتحكيم العقل، بل كان كالبنزين زاد من هياجها
أكثر وأكثر ولم يكن أيضا شج رأس أحدهم وبتر ذراع آخر وكسر
رجل ملهاة عن إستكمال الحرب، حتى أخدمت المعركة بعد
سماع سرينة الشرطة تزعق من طريق الأتوستراد، وبدورها الأمنى
لحماية الوطن جاء رجال الأمن البواسل - بعد خراب مالطة -
كعادتهم يأتون بعدما يصيب الطرفان من بعضهما.

حرب شوارع أجمتها نماذج الدراما والسينما تحت ما
يسمونه: تصوير الفن للحياة المصرية فما كان إلا تمثيل الحياة لما
فى الدراما والأفلام وليس العكس!!

أخدمت الحرب وشرع المكلف من جهاز الشرطة بإثبات الحالة
والقبض على بعض النساء والأطفال ومن لم يستطع الفرار.

وجاءت التقرير كالتى :

نشبت معركة فى شارع كذا فى منطقة كذا، أسفرت عن مقتل شيخ عجوز لم يكن له دخل بالخناقة وطفل وامرأة واثنين من الشباب فضلا عن إصابة العديد بجروح عديدة.

هناك فى قسم الشرطة احتجز من استطاعت الشرطة القبض عليه وكان من بينهم أبو الولد الذى ركل ابن الشيخ الكفيف ليتقابل الاثنان فى زنانة واحدة، فيسأله الشيخ عن سبب إتيانه إلى الحبس فيخبره الرجل عن الخناقة.

الشيخ وهو يسبح على أصابعه وحوله المساجين بوجوه مستنفرة يحدقون فى هيئته، سأل :

– إيه السبب يا اسطى؟

يرد بلامبالاة للشيخ :

– العيال ولاد المحروقة كانوا بيلعبوا بالكورة وابن المدعوق ابن سيد أبو شامة عامل فيها ابن رئيس جمهورية وبيخبط فى العيال اللى بيلعبوا معاه وبيضرب الواد ابنى وبيقولوه أنت بتضرب ابن الشيخ ليه؟ فالعيال اتكاتروا عليه وضربوه، والواد ابنى راح معلّم عليه بالموس. فأبوه سحب شوية صيّع وجى وبيقول هاشق الواد واللى الحتة اللى قاعد فيها أهل للواد.

يعقب: يعنى ابنى السبب، (ثم بضحكة ساخرة) احنا دايمًا السبب واحنا الضحايا.

يأتى صوت ونادى الشخص الذى أتى فى الخناقة، خرج من الزنزانة وبعدها بساعة سأل عنه الشيخ العسكرى فأخبره أنه خرج وعاد لحال سييله، ليفسح ساحة الزنزانة للشيخ الكفيف «القناص» فتلك الأيام لا مكان للجنائيين لانشغاله بالسياسيين.

* * *

عاد لأمه فى اليوم الخامس عشر من ذهابه الإسكندرية وهو يكاد لا يقدر على حمل حقيبته التى يدس فيها أشلاءه من ملابس عتيقة ومنتسخة، تسعد الأم المريضة بعودته كأنه عاد من ليبيا أو قطر - لم يكونوا غير خمسة عشر يوماً ياأم نبيل - ما علينا، ألقى بحقيبته أرضاً بجانب مصرع الباب ووضع كيس الجوافة على الكنبة قلما تزور الفاكهة حرم بيتهم الهش، اليوم نبيل هو من زار الفكهانى واصطحب كيلو ونصف الكيلو جوافة، محفظته اليوم عامرة بالوريقات الحمراء:

- ازيك ياما؟

- نبيل، حمدلله على السلامة يا حبيبي؟

طقوسات السلامة وترحيبات العودة شغف الأم وقلق الأبن، الأم المريضة والأبن الوحيد هى بحاجة إليه لمرضها وهو بحاجة إليها لدعواتها وهى أمه.

بعد الفراغ من طقوسات السلامة نزع ملابسه التى تشتكى عبق العرق الخام وأسأل على جسده المؤرق جردلاً من المياه الباردة، تمت هذه العملية فى عرصة حمامهم الذى لا يتسع لاثنتين يقفان فيها لضيقه. بعد الشاور البلدى سجد نبيل جسده

على ظهر كنبته التى افتقدته وافتقدها طيلة الخمسة عشر يوماً
استراح نوماً حتى العشا.

أمه تمسك بحقيبته وتفرغ ما بأحشائها من ملابس متسخة
وعتيقة، تصنف الملابس حسب نوعيتها، لباس، فالنة، ملابس
متسخة أو عتيقة للشغل وتضعها فى آنية بلاستيكية، وإن كانت لا
تستطيع التمييز بين النوعين الآخرين لشيء فى عينها، قبل أن توقظه
تحسست الطريق بعصاها إلى محل البقالة الذى يبعد أمتاراً عن بيتهم:

– ازيك يا ابو كريم؟ إدينى علبة جبنة وحببتين زيتون ثم أخرجت
الصرة وأخرجت له ورقة بعشرة جنيهاً – كانت هذه الورقة
أنيسة ورقة أصغر منها حجماً وقيمة فى الصرة باتت وحدها
تعانى ظلام الصرة، لم يعد من العشرة جنيهاً شئ إلى الصرة.

– خلاص يام نبيل خلاص والله .

– تسلم يا اخويا، إزى حماتك؟ وبنتك ربنا نتعها بالسلامة؟

وهو يناولها طلبها:

– حماتى تعيشى انتِ والبت جابت (فوزية).

أخذت حاجاتها:

– الله يرحمها، على اسم جدتها.

رمقها أبو كريم البقال بنظرة تعجب وهى تتوكأ على عصاها
تنسحب من أمامه كالأوزة العرجاء، عادت للبيت، أحضرت صنية
بلاستيك مستديرة وضعت عليها أطباقاً فارغة يبدو أنها كانت
تتصارع مع بعضها، أفرغت فى جوفها ما يسد الحاجة، مددت

المائدة - المدومة- فى فراغ بين الكنبه- التى ينام عليها نبيل-
والسرير، المائدة تشغى بما لا طاب ولذ، قطع معلبة وجبن مغلف
وأرغفة من العيش البلدى الذى يحتاج إلى أضرار تنينن لقضمه،
وحبيبات من الجوافه التى اختلسها نبيل من سطوة فقره.

- قوم يا نبيل قوم يا حبيبي جهزت لك الأكل قوم رمّ عضمك!

نبيل يأكل وهو فى خصام مع معدته كأنها تقول له: إنى
اغص بهذا الطعام الم تعكف عليه طيلة الأسبوعين الماضيين؟ أين
الطهى؟ أين ما طاب ولذ، اين اللحم والمكرونه أو الرز؟

يعتذر نبيل لمعدته ويجبرها على تقبل التونة والجبن، فهو
من يطهو هذى النوعية من الطعام فى العيد الأسبوعي، غداً غداً
سأطهو ما طاب ولذ.

يلقى باللقيمات إلى جوفه ويبلّعها بجرعة ماء معكر آسن فى
قعر الجوز، رغم تمرد معدته عليها. تمسك أمه بحبة جوافه
وتبسّطها إليه:

- خدى يا بني.

فرغا من طعامهما ورفعت المائدة بعبارات الحمد التقليدية على
لسان الأم المريضة سائلة إياه وهو يغص بالماء العاكر:

- اخبار الشغل معاك إيه يا ضنايا؟

احتك عود الثقاب على الكبريت ليشعل رأسا نارية زادت من
الإضاءة الباهتة- للغرفة الهشة- فى عين أمه المظلمة، ثم نفث
فى الرأس المشتعل بعدما أحمرت مقدمة سيجارته:

- شغل المبيت والله ياما مُتعب جامد آخر حاجة .

- ما أنا يا حبيبى قلت لك اشتغل باليوم .. تروح الصبح وترجعلى آخر النهار أحسن .

شد نفسا وزفره فى شكل هندسى مقصود :

- ياما الموجود بقى هاعمل إيه أحسن من العقدة على الكنبة والتسكع على القهاوى .

بمواساة مجبرة وحنان أكلمه وأكدمه اليأس :

- ماعلهش يا ضانيا ، احنا عايشين فى زمن صعب ، لقمة العيش للى زينا مش بتيجى بالساهل ، بطلوع الروح على ما نكلها ، وممكن روحنا تطلع قبل ما نكلها !! ثم وضعت يدها وقالت :

- والنبي الحاجات كلها غليت الرز والمكرونه غليوا ، دا الواد اللى بيحبيب لى الجرجير والفجل كان بيعد لى التلت ربط بجنيه ، دى الوقت بقى يعدل الربطة بنص ، باقول له : يا بنى قال لى : يا حاجة انتِ مش عايشة فى الدنيا ، الدولار رفع وكل حاجة غليت معاه ، الروز والمكرونه والزيت غليو . ! بقيت يا بنى أسلت من كل حزمة كام عود وأرَبط ، اعمل إيه؟ ابيع الحزمة بستين قرش الزباين ههتدينى نص ويقولوا مامعناش البريزة وما ينفعش أغلى عشان فى ناس غلابة زينا .

- ياما استريحى انتِ عيانة .. سيبك من الجرجير والفجل ، هى القاعدة على الحجر فى الشارع بتجبلك كام؟ اتنين جنيه طول النهار؟!

رنت إليه وبلسان وهبه الزمان الحكمة ببؤسه وشدته قالت :

- يا بنى النواية بتسند الزير، وممكن كمان فى زماننا دا
مانلقيش النواية!! عشان ماחדش حياكل بلح،!! ابتسم نبيل:
والله ياما انتِ اللى بلح، أنا طالع شوية وراجع عايضة حاجة؟
- لأ يا ضنايا مش عايضة.

خرج نبيل إلى الشارع الذى تسبح فيه أسماك المجارى واتجه
ناحية المقهى ليقابل أستاذ (وليد) دقائق وأتى كعادته الأستاذ
(وليد) جلس بجوار نبيل، نفث حجريه التفاح، شرب كوبه
الخمسين (الشاي) ونبيل يزعجه بأمر السفر.

- يا نبيل أنت لسه ما جمعتش تمن علبة الجنبية اللى
هتاخذها معاك تاكلها وانت مسافر وماتقلش الراجل قال لى:
احنا بنسفر على طول، يعنى فى إى وقت فلوسك هتجهزك
هتسافر النهاردة بكرة الشهر الجاي، السنة الجاية، وقت ما
تجهز بفلوسك. اطمئن نبيل لأمله فى السفر وعزم الصبر على
أمر المعمار حتى يكمل تكاليف الهجرة وعاد لبيته لينام ليقوم
فى الصباح الباكر طارقاً باب رزق شاق.

انعمس نبيل فى العمل المعمارى ما بين المبيت وشغل الذهاب
والإياب .. وكلما تحصّل على مبلغ دسه فى الكيس الذى يجمع
فيه المال الذى يعده ويحصيه كل يوم حتى مرت ستة أشهر
أحصى نبيل محصولة المالى لتلك الفترة فلم يجد نفسه يمتلك
سوى بضع مئات من الجنيهات

متبقى سبعة عشر ألفا ليكتمل نصاب ثمن الهجرة ماذا يفعل نبيل وقد فقد صحته ومعها صبره، العمل شاق، كما أن أحواله متذبذبة؛ «يوم شغل وعشرة لا»، هذه الطائفة تتأثر بالأحوال الاقتصادية التي تنهمك بسبب سعر الدولار، نبيل يشتكى لنفسه لكنه عاد وصبر وكافح المعمار بمشقته وحاله المتذبذب الذى لا يستقر حتى مر عام بين أضلع نبيل جمع فيه ثمانية آلاف جنيه، الأمر الذى أجبر نبيل للبحث عن حل آخر لجمع المال وأخذ يفكر فى حلول غير المعمار، حتى أتته تلك الفكرة. فكرة أن يجد أحداً يرهنه مسكنهم مقابل ثمنه، أخذ نبيل يفكر ويفكر ويفكر، ويبحث من هذا الذى من الممكن أن يكون فرجاً له.

سلطة المال (٥)

فى مصر إن امتلكت المال اشترت كل شىء حتى البشر .

هناك فى شقة المعادى كان الشاب الثرى - ابن الناس - ينتظر أحد القوادين ليأتيه بالجسد البكر؛ ليفترسه بأنياب شهوته ويتلذذ بقتل عذريته!!

عقرب الساعة السوسرية يشير إلى منتصف الليل ، جرس الشقة الصينى يدق رنته . عليه الآن أن ياتى على نفسه بعض الشىء ويقوم ليفتح الباب

يلقى بجهاز التحكم الذى كان فى يده بعدما أخرجه صوت الجرس من ذروة النشوة.

رأى فى شاشة الكاميرا ما ينتظره ، نموذجًا مما كان يشاهد فى التلفاز. يبدو أن هذه القواد سينال عطاءً موفورًا هذه المرة، قالها وهو يقترب من الباب ليفتحه.

يفتح الباب :

- باشا.

أصلع ، ألدغ ، نبرته نسائية، (مائع) لا يخرج اللبانة من فمه يسمى فى الوسط (قرنى).

عيننا الثرى تغفل صاحب الصوت وتمسح الجسد البكرى مسحاً شهبانياً لكل جزء. يعض على شفته السفلى. البكور لهن طعم خاص هذا الثرى - ابن الناس - يغوى لعبة فض الزجاجات البكرية يرتشف منها ما يمتعه ثم يترك سؤرها للآخرين. الزجاجات البكرية والزجاجات الكحولية تتساوى قيمتها وثمنها، بل - أحياناً - زجاجة النبيذ قد يرتفع ثمنها عن الزجاجاة النسائية.

- ادخل يا قمر، ونظره مازل متفحصاً قطعة الكريستال، شقراء الشعر، هيفاء الخصر، خضراء العينين، محمرة الخدين، وكل هذا من صنع البودرة وفعل المساحيق.

القواد يذهب حيث يشاء؛ مهمته انتهت عند هذا الحد.

وفقاً رأسين فى الحرام ثم قبض عملته من سيده.

وليرحل هذا القرنى ..

زف البكر إلى حيث من أجله جيء بها، غرفة مجهزة بأحدث الوسائل المنكرة خمر ونبيذ، ولفائف دخان، وحبوب منشطة، فضلاً عن العدسات المصورة المخفية فى زوايا الحجرة، فكل أنثى دخلت هنا لها فيلم ذكرى.

هذا الثرى يجمع على الهارد ديسك داتا إباحية لعشرات الزجاجات الني فضها، كل المنتجات خامات مستوردة كل شيء فى الغرفة استراد خارجى إلا عرض هذه البكر الذى سيسكب الليلة. كل شيء استراد إلا هذا، محلى الصنع.

«كل شيء فىك غالٍ سوى انا رخيص».

(خالد٦)

فى ظهر اليوم التالى هاتفَ الدكتور بلال على الغداء، وفى ظهيرة اليوم أسترد أمانته التى أودعها الثلاجة وشرع فى طهى الطعام الذى سيقرى به ضيفه. وبصنعة ربة البيت الحاذقة الماهرة فى تقنية الطهى إستطاع خالد فى أقل من ساعة ونصف الساعة أن يحضر وجبة كاملة الدسم من اللحم والأرز والبطاطس البانيه وبعض اكسسورات الطعام من سلطات وغيره، خالد تعلم هذا من المعسكرات الصيفية التى كان ينضم إليها مع الأخوة المطاردين فى السُكرية والذرة على حد تعبيره.

الواحدة والنصف، تعانقا بحرارة كما يتعانق لاعبو الزمالك عندما يحرزون هدفا فى مرمى الأهلى، وبترحيب حار:

– أهلا صديقى.

– ازيك ياخالد

– مرحب يا دكتور بلال عرفت تيجى أها؟

جلس الدكتور بلال خبير التنمية البشرية على الجناح الأيمن للأنتريه وقابله خالد جالسا فى الجناح الآخر، خالد يبتسم ومازال يكرر جُمل الترحيب التقليدية ثم تطرق الحديث بانسيابية

إلى المصاب الذى رفقاه مدة فى المستشفى وعن لقاء أخيه بخالد
ورده للنقود التى دفعهاها.

خبير التنمية البشرية:

– أهى فلوسك ياعم رجعت لك، أنت كنت محسنى إن
الفلوس دى كل حياتك.

– والله يا دكتور بجد المبلغ دا عليه أمل كبير.

– الخبير إيه ياعم الأمل الكبير؟

– بعد الغدا احكى لك على القصة.

مُدت المائدة وكل منهما راح يطعم عصافير معدته بما تجود به
المائدة.

– ايه يا دكتور أنت محرج ولا عامل رجيم؟

– الحمد لله، سفرة دائمة، ولا أقول لك دائماً عامر؟

يضحك خالد وهو ينهش ورك المرحومة:

– خلى البساط أحمدى.

وهو يرفع المائدة ويللم سؤر الطعام:

– شايك إيه يادكتور؟

يرد:

– بعد الأكل مباشرة ماباشربوش.

خلاص حاجة غير الشاى مش مضره بصحة الطعام، ثم دخل مطبخه وخرج بكوبين من زجاج يعكسان لون ما يعبئهما باللون الأصفر الداكن.

خبير التنمية يسأل:

- أنت عايش لوحدك هنا يا خالد؟

- لأ مش لوحدى عايش معايا القطة البيضاء اللي كانت بيتحنس علينا واحنا بنتعدى.

يضحك ضحكة خفيفة دبلوماسية - من أجل العيش والأرز الذى أكله معه - يبدو أن مداعبة خالد لم تكن على المستوى فخالد يكثر من هزله، هكذا أستاذ الرجل.

- لأ انا قصدى يا خالد بنى آدمين مش حيوانات أليفة.

خالد يتنهد كأن السؤال جاء على الجرح:

- انا عايش لوحدى من وقت ما طلقت المدام وزى ما أنت شايف أنا عايش فى الشقة دى أربع اوض وصالة اللي أنا و حضرتك قاعدين فيها ومطبخ وحمام ومنشر وبلكونة زارع فيها ورد بيدبل وبيموت عشان ما بيشرش لما بغيب عنه، ولأنى باغيب كثير لزوم شقا السياسة بارجع ألقية بيس بعد خضرة.

بعدما لعنه فى نفسه على سرده الحشوى سأل:

- مالكش أهل يا خالد؟

يرد:

– الوالد والوالدة خدوا نصيبهم من نعيم مصر وقضوا نحبهم
من تمن سنين ولى أخوات بنات اتنين متجوزين، زيارتهم لى زى
زيارات منتخب مصر لكاس العالم!! مش متذكر آخر زيارة كانت
أمتى، حضرتك فاكراً؟

بضحكة خفيفة سائلاً:

– زيارات أخواتك ليك ولا زيارة المنتخب لكاس العالم؟

يزيغ بصر خالد عنه ليشرد إلى الخيال، يتجاهل بلا قصد
السؤال:

مش سنة تسعين برضه؟ ساعة ما عبد الغنى و البلانتي فى
«فان بروكلين» (حارس منتخب هولندا فى مونديال ١٩٩٠).

يهز رأسه بالإيجاب:

– آه. انت مذاكر بقى؟

– أصل احنا شعب بيسيب الحاضر والمستقبل ويتغنى بأمجاد
الماضي، اللي هى فى الأصل مزيفة!!

حينها قرأ الخبير ملامح خالد ونبرته التى تغيرت إلى الحدة،
وأدرك أن الشخص الذى يطويه أمامه وراء كوميديته المزيفة قد
كشف عن نفسه، لهذا قال له:

– فاكراً ياخالد لما قلت لك أنك بتعانى من مشكلة كبيرة أو
فى حاجة بتطاردك؟

خالد: فاكِر.

الخبير:

- أنا النهاردة قبِلت دعوتك للغدا وجيت عشان أعرف اهي
المشكلة؟

خالد وهو يهز رأسه:

- يهملك تعرف؟

الخبير برد فيه إيحاء بالاهتمام البالغ:

- أكيد.

خالد بابتسامة باهتة:

- (أكيد) قلبك جامد؟

يشدد من قبضته علامة لقوة قلبه

يقشعر وجهه ويصيبه الذهول بعدما رفع خالد سترته عن ظهره وعراه، كشف عما يخفيه وراء كوميديا مزيفة، حفر سوداء، مناطق لجلد ميت، صاعقات كهربائية تبدت نتوءات سوداء، أثار للسعات ناربة شوهت ملامح الجلد فأصبح يشبه ظهره أديم الجمل الأجرى، فضلاً عن الآثار التي تدل على الجروحات والقطع فى أنحاء الجسد، بدا الجسد كأنه ناج من نهش مخالف ذئب ثم طيبت جروحه فى الزيت والنار.

سأله:

- من إيه دا يا خالد؟

- من لعبى فى الشارع وأنا صغير.

لم يألّف جليسه الرد الساخر ونظر إليه كله، خالد يهش قطته حين حاولت القفز على الأريكة بجواره بعدما أسدل لباسه على جسده وقال:

- دا يا دكتور لأنى كنت باقول عايز أعيش بلد حرة مافهاش ظلم، دا لأنى كنت باقول: عايزين يحكمها العدل، عايزين دولة يحكمها القانون، عايزن دولة تحقق المساواة، دولة فيها تعليم، دولة ما يحكماش عصابة ويتحكموا فيها أفراد من الجنرالات يتحكمون فى قوت تسعين مليون، دا لأنى كنت من الأقلية الشاردة عن القطيع اللى بيساق بعصاية الراعى، دا لأنى كنت باحلم ثم أشار إلى جليسه وأردف بنبرة تغير لحدة غير مقصودة:

- إياك تحلم فى البلد دى؛ لو حلمت هتصحى على كوابيس.

- يا آه و للدرجة أنت يائس!!

- احنا شوفنا فيها غير اليأس؟

- بس لازم نتمسك بالأمل ولا نسلم نفسنا للجزع.

ثم أخذت نبرته فى الحدة وجرى الدم فى عروق وجهه، كأنه عرابى يخطب للثوار: أتمسك بالأمل حتى لو أمل ضعيف، عمر الهروب ما كان حل، ما تقلش من قدراتك فى تحسين واقعك وتغير حياتك. شوف فين طاقة النور وبص منها، أنت ليه مانتش شايف غير العتمة والسواد؟! دور يا خالد، على نفسك هنا، فين الوطنية وحب البلد؟

يرد بتعصب ونبرة أسفة :

- مش لاقى أى مخرج ولاحل تاني ، يئست يئست ، فين الأمل اللى حضرتك بتتكلم عليه؟ مش موجود أصلا ، مافيش أمل فى بلد عششت الدبابير فى كل حتى فيها!! والوطنية ما بتأكلش عيش حاف ، أنا كفرت بيهما ! أنت عارف كل شباب مصر ما بيحسش بالوطنية غير على القهاوى أو المدرجات لما مصر بتفوز على الكامبيرون أوغانا ويسمعوا أغنية سفيرة الوحدة العربية نانسى عجرم (والله عملوها الرجالة) ، شعور وإحساس بالوطنية مؤقت والله لو سألتهم تحبوا تهاجروا وهموا بيغنوا ليقولوا لك :من دى الوقت ، وطنية إيه ! ومستقبل إيه فى البلد دى!

- ولو. ازرع أنت الأمل فى صحراء اليأس ، ولو هتهرب أهرب ، أهرب بجد ، بس من أفكارك السلبية ، أهرب من سجن اليأس

- الحياه هنا خلاص ، خلاص ما بقتش للى زينا ، مش هنقدر عليها ؛ العتاوله اللى معاهم الفلوس وييلعبوا بالسلطة هما اللى بيتحكموا دى الوقت ، وكل حاجة بالفلوس - زمن الرق رجع - ويتبيع نفسك وتعيش فى عش الدبابير لا مؤخذة مقرص - بالعين مش بالقاف - وتسير مع القطيع بالعصاية ، لتعارض ومصيرك مستنيك ، وفى بلدك السجون أكثر منها مافيش!! .

كلمة « لأ » جريمة بيعاقب عليها القانون المصري ، حتى لو بتقولها للشيطان أنت مجرم ؛ لأن الدبابير مع الشيطان وبيأيدوه!

- وأنت يا خالد شايف الأمل فين؟

يرد والأسى يطغى على نبرته :

- هو اللى يفقد الأمل فى وطنه ممكن يلاقيه فى مكان تانى!

- طب ما أنت عارف أهو حقيقة الأمر وإن الوطن هو الأمل

خالد يثنى رأسه خلفاً ويرد حاكياً:

- كان لى صديق صعيدى كان متغرب عشان لقمة العيش، وفى

يوم كان عايز يهاجر زى كدا، قلته يا صاحبى دا خطر الهجرة بالطريقة ده، رد وقال لى:

- الموت ياواد عمى لو بيجرى وراك ماتستناش لما يلحقك،

روح قابله ممكن تقدر تضربه قلم على وشه وتختارك أنت موة

وتبقى موتَ بإرادتك، وأنا دى الوقت هاخذ بكلام صديقى - الله

يرحمه - على فكرة دا مات محروق وهو راجع بلده منيا الصعيد

على العيد بعد غربة خمس سنين فى شوارع القاهرة.

- وليه يا خالد تختار الحل اللى شبح الموت مستنيك فيه.

يصرخ:

- لأن الوطن ما ساب ليناش حل تانى!! الموت بيجرى وانا

فى حياتنا كلها.

مطاردات أمنية واعتقالات وتعذيب، واستخفاف، وكبت

للحرية، وتبديد للحقوق، وغلاء معيشة، واطضهاد، و..و. احنا

كلاب فى لعبة السيجا اللى طرف لعبتها عمالقة المال وجنرالات

السلطة بيلعبوا بيننا ويضحوا بأى كلب بيشفوا مكسبهم فى

موته.

دا كله مش موت؟ موت بس بالبطئ. يبقى أنا اللي اختار
موتى ويبقى مرة حسيت بحريتى ولا استنى لما أموت مسجون من
التعذيب، ولا أموت من الجوع والقهر؟

حضرتك تقولى أنت فى مجالك اللي المفروض بتوعى الناس
وتحثهم على النجاح وتثقيفهم، تقدر فى الزمن دا تتكلم عن
منظومة الفساد اللي سيطرت حتى على أمام الجامع؟
أراد جليسه أن يرد فغالبه خالد وهز رأسه قائلاً:

- ما اظنش! فيه توابيت ممنوع عندكم انكم تفتحوها، يبقى
بلاش نتكلم عن الأمل واحنا شايفين أننا فى سجن حكمننا من
ستين سنة أنتم توعوا وهما يغيبوا، طبعاً وهما الأغلب!!

رد خالد أحمد حماس جليسه (خبير التنمية البشرية) فى الرد
فأخذ يرتشف مشروب العصير وكاد يغص به من كلام خالد الذى
بدا كقذائف لا يمكن ردها.

* * *

«فتحت ملف الصور فتصلبت عيناها من فظاعة
المشاهد في الصور».

(ضحية قضية هـ)

بعد رحيل أحمد بشهرين أخذت تجر قدميها اللتين أثقلهما الاعتكاف فى المنزل - حزنا على رحيل أحمد - إلى شرفة حجرتها التى تشرق على مغرب الشمس، أعتادت رجاء هذه الجلسة فى ذلك الحين من الوقت- وقت الغروب - منذ رحيل أحمد، تأخذ مقعدها وتجلس واضعة خدها الأيمن على يدها، تنظر فى قرص الشمس الذى يبدد صفحة السماء بأشعته القزحية. رجاء ترسم فى صورة الغروب صورة لوداع أحمد فتنسكب دموعها كلما ابتعدت الشمس وتلاشت خلف أبنية المنازل المتأبينة الأطوال حتى يؤذن المغرب، فتمسح دمعها وتغلق باب شرفتها. وفى يوم كانت تمارس تلك الطقوسات انتهز فرصة خروجها للشرفة ونظر إلى هاتفها نظرة الليث لفريسته، انقض على الهاتف واختلسه بيديه الغليظتين من على الكومدينو، بأنامله الرعاشة - التى تقطع وتلف فى شاش حرير - مارس هوية العبث التى جلب عليها، ومسح كل بيانات وذاكرة هاتفها، لم ينج ملف واحد من عملية المسح، حتى أفرغ كل ذاكرة الموبايل - فلتصرخى يارجاء على ما أصاب هاتفك - تلمح رجاء أخاه العابث وفى يديه هاتفها فتثب إليه فزعا على الهاتف. وما أن يراها الصبى العابث فيرمى بالهاتف ويفر هاربًا للخروج. تمسك هيكल هاتفها وتتفقد ما فعله به فتنهار

باكية، بعدما رأت الذاكرة خالية من كل شئ، بكت وذرفت دموعاً غزيرة؛ لأن صور أحمد مسحت، خرت على فراشها هامة تثقلها الأحزان والدموع الجافة، تعاتب نفسها وتلومها، ظنت بنفسها أنها قصرت في المحافظة على ما تبقى من أثر الحبيب الراحل.

وبعدما باتت ليلتها في أنس الحسرة وشعور التقصير لفقد الصور، في ظهر اليوم التالي أجرت اتصالاً لأخت حبيبها الراحل وقصت عليها ما حدث؛ لعلها تنديها بقطرة أمل تمسح بها دموع الحسرة، طمأنتها أخت أحمد وقالت:

- ماتزعليش يا رجاء، أحمد عنده الملفات كلها على اللاب توب وبإذن الله تلاقى الصور عليه، سألتها رجاء بنبرة الأمل:

- اللاب فين؟

ردت وهى تحاول سد نبع دمع يود أن يسيل:

- الله يسامحك يا رجاء، هتقلبي المواجه على ماما، بعد موت أحمد جمعت كل حجاته (الكاميرى والتليفون، واللاب توب) وحفظتهم فى الدولاب وقفلته عليهم .

- أنا هاروح بكرة أزور «تانت» وأطلب منها أشوف الحاجات دى ويارب ألقى الصور، هاموت لو مالقتش الصور يا سماح، مش هاسامح نفسى، لترد سماح في لطف: ربنا يطول في عمرك، احنا بنشوف أحمد فيك ثم غلبهما طوفان الدموع، لم تنتظر رجاء وهمت فى ليلتها بزيارة أم الفقيد، تستقبلها الأم الثكلى بترحيب آسى وتتعانق الأحضان بحزن حار وتنسجم دموع الثكلى مع دموع المتأرملة بحدادها على الحبيب، وبعد تبادل سلامات

محزونة وطمانات مكلومة، عادت إليها رجاء وطلبت منها أن ترى حاجيات أحمد، فلم تمنع الأم وأخذت بيد رجاء وصحبتهما إلى داخل غرفة أحمد التي أغلقت بابها فلم تفتحه لأحد سوى هذه المرة لرجاء، دخلتا غرفة أحمد فتغيب رجاء عن واقعها وتذهب بصورة أحمد المعلقة على الحائط التي يظهر فيها على رمل الشاطيء وهو يقلد اللاعب أبو تريكة فى حركته، بعد تسجيل الهدف (يطير مثل الحمامة) تذكرت رجاء وقت ما حكى لها عن تلك الرحلة وفرّجها على صورته فيها، رأت، سمعت، شمت.

رأت صورته وهو يجلس فى بيتهم بين العائلة ويربها صورته، سمعت صوته وهو يبادلها الضحك، اشتمت رائحته التى تعبق بها حينها؛ فداعتها الابتسامة المفتورة بالدموع وعادت لحجرة أحمد بعدما نادى عليها أم فقيدتها وأخرجت لها حقيبته من الدولاب: خدى يا بنتى افتحى الشنطة فيها كل حاجة لأحمد.

رجاء فتحت بطن الحقيبة وفرّغت أحشائها، فوجدت اللاب توب، وهاتفه الجوال، وساعة اليد، وكاب وقميص مخضب بدماء جفت على خيوطه. امسكت رجاء بالقميص اشتمته، وحملت فيه بعينيها الذابلتين، ثم احتضنته ولم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء، ربتت الأم الثكلى على رأسها واحتضنتها وأخذت تهدئ من عويلها ونواحيها المنهوك، وبصوت مبحوح:

– خلاص يا رجاء، خلاص يا بنتى، أهدئى يا حبيبتي.

ورجاء فى غيبوبة الإجهاش، أنا مش حمل تعب، اللى فى مكفيني، وحدى الله يابنتى.

رجاء عندما وحدت الله وسكت عنها نواحها وهدأ عويلها،
أستأذنت أم الفقيد أن تأخذ (اللاب توب) فوافقت وأوصتها
بالمحافظة عليه قالت:

- خديه يا رجاء، انتِ الوحيدة اللي ماقدرش أمنع عنها
حاجة عشان أحمد.

وقبل أن تخرج رجاء لتؤوب لبيتها:

- خليني أشوفك يارجاء تعالي اقعد معاكى.

- ماشى يا ماما.

قبلت رأسها وغادرت.

عادت رجاء إلى بيتها وأسرعت إلى غرفتها وأغلقت على نفسها
باب الغرفة فتحت جهاز اللاب توب رسالة ترحيب الويندوز
رجاء تستعجل جهاز المعالجة، فتحت ملفات الجهاز تبحت عن
أملها، الصور التي تجمعها بأحمد، بعد فحص لملفات الجهاز
عثرت على ملف الصور فتحتة فقطعت بسمتها حزنها الطاغى
وقالت: الحمد لله وأخذت أنفاسها تهدأ بعدما رأت ملف صور
مكتوبا عليه صورى ورجاء، رجاء تنظر فى الصور بل تتأمل فيها
صورة صورة كأنها لم ترها من قبل، صورة تجمعها وهما فى
حديقة الحيوان. صورتها وهى تمطى الخيل وأحمد بجوارها على
حصان أبيض.. تشرم الأبتسامة لثامًا فيه رجاء المحزونة عندما
ترى صورتها وأحمد وهما يلعبان، يركضان وراء بعضهم.. يشاغبان
بعضهما. استحضرت كل مشاهد الصور كما استحضرت فقيدها
فيغشاها البكاء واغرورقت عيناها ويكسو وجنتيها النحيب بجداول

دمعها، انكفأت على فراشها من شدة البكاء والنحيب ثم هدأت واستأنفت عرض الصور حتى داهمها النعاس فنامت ليلتها.

ظلت رجاء طيلة شهور تشاهد صورها مع حبيبها الراحل حتى نضبت وجفت ينابيع دموعها، وذات ليلة أخذت تعرض باقى الملفات الموجودة على جهاز الكمبيوتر المحمول استثنائاً بكل ما يمت لفقيده، فوقع نظرها وهى تجول فى عالم جهاز (اللاب توب) على ملف صور أخفاه أحمد داخل ملفات متداخلة، فتحت ملف الصور فتصلبت عيناها من فظاعة المشاهد فى الصور، رأت شخصاً جالساً وسط اللهب والحريق يرتدى قبعة خضراء (خوذة) يحتضن آخر ملطخاً بدمائه، وفى صورة أخرى أربعة يحملون مصاباً بدا عليه أن الرصاصة النارية أفرغت مخه من رأسه. ضيقت رجاء على عينها ثم أعادت النظر وحملقت، وشيخ لحيته بيضاء التقط أنفاسه وهو رافع سبابته، وحريق يلتهم فى جثث مكفنة كأنها حطب ألقى فى خضم الحريق.. تصعبت رجاء واقشعر بدنه المثقل بالأحزان بعدما رأت جثثا مسجاة متراكمة كذبائح الفدا ولم يكفِ هذا بل تجرف وتلقى فى الحريق، لافتة مكتوب عليها المستشفى الميدانى تأكل منها النار وحولها شخوص تنزف. تصرخ رجاء بعدما رأت صورة لمقتولة برصاصة فى رأسها، تأملتها وعرفت أنها كانت زميلة لها فى الكلية، وكانت تحت رجاء على الأنشطة داخل الأسرة فى الكلية. نار وحريق، وقتل وترهيب. ألسنة دخان تحيط بمصابين وشهداء، حالة من الهلع والذعر يصخب بها صمت الصور بدت المشاهد وكأنها فيلم رعب أخرجه (Tope Hooper) ليحوذ به على الأوسكار.

رجاء بعدما شاهدت الصورة التى رأتها فى جهاز حبيبها
الراحل تأزمت نفسياً وبدأ يداهما شعور الجفاء والجحد لوطنها
التى تعيش فيه بعدما تقصّت بنفسه عما رآته من مشاهد الصور
ليجتمع فى قلب رجاء، تلك الفتاة العذراء التى أرادت أن تعيش
فى خدر البراءة والحب، بدلت حياتها إلى صدمات فاجعة
وموجعة بدأت بموت حبيبها ومداهمة الأمن لها من حين لآخر
بعدما تسربت أخبارها إلى سجلاتهم الأمنية بعدما تبنت رجاء
الدفاع عن قضية رأتها جديدة بالتبنى، والدفاع عنها شرف - بل
واجب - لكل حر يؤمن برسالة الحق والعدل ولا يضيره عواقب
أو مخاوف تهدده. إنها رجاء البتول البريئة تتحول - بخلصة
قدر- من عالم الهدوء إلى عالم الهياج، كانت مقصورة فى خيام
الحدود والبراءة التى فطرت وجبلت عليها وتربت وعاشت بها
حتى بدلت حياتها - كليةً - إلى صراع مع الأقدار المتلاحقة
عليها وعلى أسرتها، بل على شعب بأكمله من أمثال رجاء. فلم
تكن البراءة حجاباً دون اللعنات التى لت بمن هم أهلها.

تحولت حياة رجاء وتبدلت، أيما تبدل .. ! شأنها شأن وطنها
المتختم بأسرار العجب فى أحواله التى يشيب لها الرضيع وتخر
من هولها الجبال. وحسبك أن ترى حياة رجاء رمزية لحياة لهذا
الشعب فى السنوات إلى أعقبت الثورة. سنوات يذكرها غد التاريخ-
إن شاء هذا الشعب أن يكون له مستقبل - بسنوات الظلام.

سنوات ظلام.. سنوات تلثم فيها لسان الثورة عن النطق
بما هتف به شباب قدموا أرواحهم قرابين لآلهة الحرية، فنكصت
هذا الآلهة عهد الشباب وجففت دماؤهم سدى.

وذات مرة فى الذكرى الرابعة لما يسمى بالثورة- وما هى بثورة
ولكن الشعب عبيط - خرج جمع من بقايا الأحرار يصرخون
بحناجر الحماس الثورى الذى قابله خصمهم المتربص بهم - مذ
ستين عاما - بما أوتى من قوة وبطش.

صيحات الهتافات كأزئير الأسود فى خضم الهياج يقابله
تأهبات جحافل عاتية معتوهة من الأمن المركزى وملشيات الجيش
ومرتزقة الشوارع، يترصدون ويطوقون شارع الدقى والشوارع الجانبية
له. هذا الشارع الذى شهد على مذبحه لأنصار الثورة الذين تيمموا
ميدان التحرير من بوابته لكن مرتزقة البلطجة ومعهم جنود الجيش
والشرطة آبوا إلا الانتقام من الثوار قبل أن يصلوا إلى الميدان المشهود.
سقطت عشرات الجثث مزرجة بدمائهم كأسراب طير لم ترأف
به يد القنص.

جثث الشهداء المتناثرة.. والأشلاء المبتورة .. والدماء المسفوحة
فى هذا اليوم لم ترو ظمأ الخصم المتربص بالثورة، فراح يرسل
جنوده يطاردون ما نجى من حصاد الموت.

فى قسم شرطة الدقى زج عشرات المقبوض عليهم مكبلين
الأيادى ومعصوبين الأعين ..

كواهل وأطفال .. ، رجال ونساء..

لا فرق بين صغير أو كبير، بين رجل وامرأة، الكل فى قبضة
الأمن متساوٍ فى البطش والتعذيب.

لارحمة لشيخ أو صبى! .. لا رفقة بإمرأة أو فتاة ..

شهدت بأم عينها - لأول مرة فى حياتها - مشاهد لم تقرأ عنها فى الروايات البوليسية ولا فى قصص الرعب الخيالى.

رأت وشهدت - بعدما نزع عن عينيها عصابها- ما تستحى الفاجرة من حكيه فى مسامرة الفساق.

رجال تخذش كرامتهم .. ونساء يغتصبن.. وبنات تسلب عذريتهن..

أنين رجال.. وصراخ نساء.. وبكاء وعويل!!

ساحة القسم استحالت مسرحًا لجريمة شنعاء لا يشتبه بها فى محاكم التفتيش ولا سجون النازية!

وما أن يزج بالمقبوض عليهم فى ساحة القسم وطفق الجنود وأمناء الشرطة ينهالون عليهم بالضرب لكمًا، وركلاً، ووكزًا ووخزًا، بالعصى المدببة والسياط اللاسعة، ومن ثم تجريدهم من ملابسهم دون مراعاة لحرمة الجسد، رجالاً ونساء. وممارسة العنف الجسدى والمعنوى معهم

شاهدت بأم عينها لم تقرأ عنه فى الروايات، ولم تشاهده فى أفلام الرعب، ولم تسمع عنه فى قصص الخيال.

انعطف القدر بحياتها إلى هذا العالم الخفي المرعب ..

حادت بها الحياة عن ستر كل ما هو مكشوف إلى كشف كل ماهو مستور

العفة أمام عينها تخترق ..

شاهدت هذا وهى مطروحة على ظهرها أرضًا واثنان من عتاة الأمن يمسكان أطرافها يحاولان إخماد مقاومتها المنهوكة ليتسنى

لكبيرهم نخرالفتاة والارتواء من نخبها العذرى.

ومثلها مثل بنات كثر في هذا الوطن العاق فقدن أغلى ما تملك
الفتاة أو المرأة.. !

ركنت إلى البكاء الذى أعقبه صمت وذهول فترة حبسها التى
زادت عن الشهر، خرجت من الحبس بعدما فقدت نضارتها!
فقدت بكارتها..

فقدت بسمتها البريئة ونظرتها الجريئة!
فقدت نفسها ..

بعدها فقدت عُذريتها!! أى حياة استحالت إليها مقاديرها!
هل هذا كابوس جثم على منامها فلم تفق منه بعد؟ أم أن هذه
تهيئات من فعل سحر أو عمل؟

لا هذا ولا ذاك، إنه الواقع الأليم والحقيقة المفجعة!!
آسرها الصمت والذهول، وظلت ساهمة، واجمة، راغبة عن
الحياة الطبيعية، ترمش بعينيها اللتين كحلهما الحزن ورسم
لحظهن السواد.

أين رجاء التى قصرت فى خيام الالتزام والتستر؟
أين رجاء التى لم يمس طهرها دنس ولم يقربها نجس؟
صارت الحسناء البيضاء، ذات البهجة الأنثوية دمية صماء..
كياناً مهدماً..

وأى انكسار قد يصعب على المرء أن يجبره؟

إنه الانكسار الذى يترك آثاراً لا يمحوها زمن ولا تُنسيها أحداث، إنها العاهة النفسية التى لا يعالجها طب ولا يشفيها دواء! وأى خبير قد يعيد لؤلؤة من الماس إلى هيئتها الطبيعية إذ انصدعت أو أنشطرت؟

باتت حبيسة الحزن، أسيرة العزلة والصمت. حتى صرخت ذات مرة صرخةً تصدعت لها جنبات البيت، وانفطر لها قلب أمها، وهرع إليها أبوها متعثراً فى مخاوفه عليها. أخذت أمها تهدأ من بكائها الذى عقب صرختها، عاجزة حيال أمرها. تبكى ليل نهار لما حل بابنتها. زهرة حياتها ذبلت وذهب عطرها. الوردة التى قطف عقبها من سينظر لها أو يستأنس بها سوى متعاطفٍ أو مجامل لحالتها ولسان حالها : آه رباها!

— اهدى يا بنتي، اهدى يا حبيبتي (وهى تربت على كتفها وتمسح على شعرها).

وأبوها الذى مسه الكبر مبكراً لما أصاب ابنته، والذى لطالما نهاها عن السير فى المسيرات محذراً إياها من بطش الأمن وجبروته، بدوره يذكرها بالمبتليات الصالحات أمثال: أم عمار الصحابى ورابعة العدوية المرأة الصالحة.

وتمر الأيام وتمضى الشهور وتتعاقب الشمس والقمر دونما شعور أو إحساس بالأيام. وما فتئت ساهمة زاهلة فى ملكوت صمتها، ينتابها البكاء وتأخذها الصرخات من حين لآخر، حتى مضت ستة أشهر على هذه الحال قبل أن تنسحب ببطة من تحت وطأة

الحزن والسهوم، كجندى مجرد من ملابسه يتسلل من تحت
الأسلاك الشائكة زحفاً على بطنه فترك آثاراً على جسده.

على مضض قاومت جزعاً وبأساً سبها طيلة تلك المدة، وكأن
رجاء سنت تلك الفترة حداداً لمن قُتلت عذريتها، وإن كان العمر
لا يكفي، هذا أكبر ظنها.

كانت القراءة وصفحات الكتب هي الملجأ لها، تخفف من
صدمتها وتلهي نفسها عن الحزن. وبدرها أمها شجعته على ذلك.
«القراءة نوع رخيص من المخدرات، لا أفعل بها شيئاً سوى
الغياب عن الوعي» أحمد خالد توفيق .

وكان رجاء أمنت بهذه المقولة وصدقته فغابت في صفحات الكتب
شيئاً فشيئاً، فحف السواد من تحت عينيها؛ فانبسطت أسارير
أمها وذات مرة نظرت إليه نظرة إشفاق وقالت : ما شاء الله أيوة
كدا يا رجاء، النهاردة أحسن، هاقوم اعمل شوية شاي نشربهم سوا
فنظرت لها رجاء نظرة رفض، لكن أمها تيممت المطبخ وأتت
بقدحى شاي: ربنا يصلح حالك يابنتي. وهى تنظر لها، مطولة
النظر وهى تنسحب للداخل.

هل تريد رجاء أن تطوى صفحة الماضى القريب

ماضى الكارثة.. ماضى الكابوس.. ماضى اللعنة..

الماضى المرعب المخيف، الماضى الذى نزع عن الوطن لباسه

ليوريها سوءته ؟

وهل لازت بالقراءة عزاءً وصبراً، أم أتخذتها مهرباً وهجراً؟ أم
تزداد من زاد الثقافة والوعي..

وأى وعى هذا .. ؟

وأى قراءة تجدى!..

وأى ثقافة تنفع!..

أو ليس الوعي فى هذا الوطن ضرب من السذاجة؟

شئ من الخبل؟

(لأنك كلما زاد فهمك ووعيك فى هذا الوطن مت
قهرًا وحسرة على ما نحن فيه).

ألم يقل المثل الشعبي : «المجانين فى نعيم»

نعم، فالغياب وعدم الإدراك للواقع - إن كان أسودًا مظلمًا، لا
متنفس فيه لبصيص النور - خير من وعى مضر بسلامة المرء.

فليتنا كنا فى نعيم؛ ولانعى واقع هذا الوطن !

تسربلت رجاء بأغلفة الكتب ووساوس الخلاص والهروب
تجيش فى سراديب رأسها. عكفت تقرأ .. وتقرأ ..

سرداب ضيق، قاتم، تحاول الخروج منه وعلها تبحث عن
الحل فى صفحات الكتب؟

أشبه أحياء (الفقر ١١)

نشوة الفرخ والسرور تكاد تحول قدميه إلى جناحين ليطيّر بهما من على الأرض - فما أفرحه الساعة وما أسره - يبدو أن السماء فتحت أبوابها لدعوات أمه.

أستجيب للدعاء.. جاء الفرخ وأخوته .. هلّت سوابق الحل

فقد عشر نبيل على الشخص الذى يبحث عنه ، يقرضه المال بالفائدة. نبيل يحاول جاهدا تجميع مال السفر بكل الوسائل ولذلك لجأ لهذا الحل.

يقف نبيل على حافة طريق الأتوستراد فى نزلة كوبرى منشية ناصر؛ ينتظر حافلة النقل العام- أتوبيس ٦٩ المتجه إلى العباسية، فرغم أن نبيل مستعجل لقاءه مع من سيرتهن بيتهم، إلا أنه مجبر على انتظار الأتوبيس، يقف منتظرا كأنه يقف على جمر ملتهب، باطن قدميه تستكنفان تراب الطريق من الاستعجال، لكنه مجبر؛ لأنه لا يملك من النقود سوى حق تذكرة الأتوبيس العام، لا تساعده حالته الاقتصادية أن تأخذه الوجهة أن يستقل المكروباص فضلا عن التاكسي.

ينتظر وهو ينظر ناحية اليسار تجاه قدوم السيارات، يشد بعينه كل حافلة نقل عام أملاً أن تكون أتوبيس «٦٩» محل انتظاره.

نبيل يوزع نظرات عينيه مرةً بين السيارات، ومرةً على الورقة التي يقبض عليها بيده حرصاً عليها، ورقة طال عليها الأمد فبهتت وكادت تتلف أو تأكلها القرضة، تحول لونها إلى الأصفر بعدما كانت بيضاء، وانمحت ملامح السطور المحبورة على الورقة. طواها نبيل في كيس بلاستيك حتى لا تتأذى من باطن يده الخشنة، فكم يراها سبيلاً لنجاته من الفقر، ولا يدري هذا المسكين أنها ستكون سبباً لمجهول مفرغ له ولأمه هذه الورقة الملعونة.

ها، ها، حافلة آتية من بعيد، نبيل: يارب يكون أتوبيس العباسية.

تقترب الحافلة وتنزل بعضهم وتشحن آخرين. يضرب نبيل بقدميه الأرض؛ ليس أتوبيس العباسية!

تتوالى الحافلات التي لا يرومها نبيل والانتظار يرهقه، أشتكت الأرض من ضربات قدم نبيل لها وأرق من حوله من ذهابه وإيابه.

ها، ها. أربع حوافل متجهات إليه يأمل أن يكون أتوبيس منهم خط العباسية

أتوبيسات مصر تتغيب طويلاً لكنها تأتي جماعة

يترك نبيل أول الأربعة يمر، لم يستقله؛ لأن لونه أزرق، نبيل يتعظم على هذا أو يكره اللون الأزرق، علّة ذلك، لا نتهمه بمثل هذا، إنما الأتوبيسات ذات اللون الأزرق أجرتها مضاعفة لأجرة الأتوبيسات ذات اللون الأحمر، الأخيرة أجرتها: جنينه مصرى

واحد، والأولى بجنيهين. معظم الزرقاء جديدة لأنها دعم من الإمارات الشقيقة لمصر الحبيبة جاءت هذه الحافلات كالبطاطين والملابس المستعملة دعماً للأخيرة وتشجيعاً من الأولى لمحاربة الذباب المحتمل (وعظيمة يامصر وقشطة يانبيل).

برتابة موظف نقل عام حريص على الأجرة، الكمسرى:

- يابرنس اتقدم لقدام الأتوبيس فاضى من قدام، أشهر جملة
مكذوبة فى تاريخ مصر - الأتوبيس فاضى من قدام - يحاول
نبيل الوصول لقدام الفاضى من بين الثغرات التى يكتشفها بين
أرجل وأفخاذ الركاب المتكدسين فى الممر، يتسلل كما يتسلل
الجندى إلى الأسلاك الشائكة من الزحام الركابى.

- الأجرة.

نبيل يرد عليه بجنيه ورقى مهترئ عتيق غار عليه الزمن
بنوائبه ممتعضا:

- إيه ياعم دا؟!!

نبيل: جنيه.

- دا ورق، وملامحه اطمست شكلك بتحوش.

نبيل يمسك بالعارضة الحديدية المعلقة بطول الحافلة وتشرد
نظرات عينيه من النافذة لتسبح فى خياله الدايم، تمر حافلة
بجوار الحافلة التى يستقلها نبيل فتحدث تيارا هوائيا لفح وجه
نبيل فيكشف عن ثغره الذى صدأ، ابتسم نبيل بعدما أخذه
خياله لمشهد طالما ينتظره ومن مثله فى سنه.

نبيل يستقبل التهاني والتبارك، أقارب وأحباب، وأصحاب
وجيران جاءوا يفرحون معه، يمسك بيدها ويلبسها الفص الذهبى
(الدبلة) يداعب بعضهما بالبسمات والهمسات، نبيل فى ليلة
عرسه بعدما استقر به الحال ماديًا وضحكت فى وجه الدنيا،
نبيل يسمع بأذنيه أصوات التهاني ويشعر بالفرحة.

بصوته الخشن يُفئق نبيل من حلمه ويخرجه من هالة السعادة
التي أحاطت به :

– إيه يابرنس احنا وصلنا المحطة!!

نبيل سيعاقب نفسه لأنه تركها تحلم، كان عليه أن ينزل من
الحافلة قبل المحطة بمائتى متر، سيرجع ماشيا حتى يصل إلى ما
ينبغى أن ينزل عنده، (قد لا يحق لك أن تحلم إذا كان واقعك مشغولا
بالآلام والتحديات حتى لا تستيقظ على ألم آخر بسبب حلمك).
بعدما عاد نبيل المسافة التي خانه فيها حلمه سأل عن مكتب
الأستاذ (عوض) الذى سيقرضه المال.

– بص يا كابتن: أنت هتسيب ناصيتين وتدخل أول شمال
هتلاقى محل بقالة العمارة بقى اللي فى وشه.

نبيل مؤكداً: اللي ف وشه؟

– يرد بثقة وتوكيد:

– آه.

نبيل أخذ بالتوجيه الجغرافى وترك الناصيتين لكنه لم يجد
الشمال ورأى محلات بقالة كثيرة، وليس محلاً واحدة؛ فسأل آخر؟

فرد الآخر:

يا برنس أستاذ (عوض) مكتبه مش هنا، دا فى العتبة!

نبيل لم يقتنع بالرد وسأل آخر فأخر فأخر، وشمال ويمين، وراء وقدام، وهناك، بعدما جاب الشوراع يلف ويدور كالنحلة تزوم على خليتها وجد نفسه عند أول نقطة سأل فيها، وهو يلتفت وراءه وجد لافتة تطل من حائط الدور الثانى مكتوبا عليها مكتب الأستاذ عوض يصعد السلم ليجد نفسه فى مكتب الأستاذ عوض حجرة مفضوحة عورات بلاطها الباهت، وجدران جار عليها طول الأمد فأسود لونها بعدما كان أصفر، يتوسط الحجرة قطعة من الصاج مدعمة بأعمدة حديدية استوطنتها الأتربة والأوساخ من أمد، تستأنس بكرسى خشبى أعرج.

ينبثق منها ممر يبدو أنه يسلم على حجرة أخرى وحمام منحط هالك، يقف نبيل ويصدر نداءات: أستاذ عوض فيجيبه صدى صوته بالضاد المفخمة قبل أن يخرج إليه أستاذ عوض ممسكا بشئ فى يده.

- تعالى يانبيل أقعد أخت ليه؟

نبيل يمسح تراب الكرسي الأعرج بمقعده: خد يا أستاذ .

يناوله «جحة البيت»، يتسلمها الأستاذ عوض بعين متفحصة:

- ياابنى دى مش باين فيها حاجة خالص ! على العموم هات صورة البطاقة وخذ امضى هنا.

وأشار على ركن فى ورقة.

- (نبيل بخيلاء الجاهل) لأ، أنا بابصم، الأمر الذى وضع أستاذ عوض فى مآزق لأنه لم يكن عنده فى المكتب المهجور ختامه، مما دفعه لاستخدام عقله المصرى وأخذ ببصم نبيل وبصمه بعدما أفرغ عليه حبر القلم الجاف وبصق عليه. (تصريف مصرى خالص).
- استنى يا نبيل هادخل أجيب لك الأمانة.

لم تمر الثلاث دقائق وعاد له بالأمانة. أخذ فى عد ورقها لنبيل. مائة ورقة يستقبلهم نبيل استقبال نادى الزمالك لدرع الدورى، فرح وسرور طاغى. نبيل يتسلم رزمة الدين الذى سيقصم كاهل امه بعد رحيله إلى المجهول، هرع فى حينها إلى الأستاذ (وليد) بعد محاضرة مملّة من الأستاذ (عوض) كان فحواها:

أسمع يا نبيل يا بنى :

- أنا ياما ساعدت شباب زيك كدا كتير، باسلفهم الفلوس يعملوا مشاريع ويكسبوا، وشباب كانت عايضة تسافر زيك كدا، منهم يا نبيل اللى ربنا كرمه ووصل للبر ومنهم اللى ماوصلش وراح وأخذ معاه الشر! نصيب يابنى! كل شئ نصيب واستشهد بقوله تعالى: (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت)، وعلى فكرة أنا مش باتعامل بالربا لاسمح الله أنا بآخذ نسبتي الحلال، عشرة فى المية لو كسبت، وخمسة فى المية لا قدر الله لا قدر الله لو خسرت وبينى وبينك الورق اتفقنا يا نبيل؟
- اتفقنا (بكل بهجة) اتفقنا.

كأنهما اتفقوا على زواج ابنته البكر الرشيد التى يركض وراءها شباب الحى وقد حظى بها نبيل بعد مغازلة منه!!

سلطة المال

فى صالة أحد الحانات بشارع الهرم، أنفاسهم الكريهه المشوبة
برائحة الخمر والدخان كانت تتبختر فى ساحتها وسط زحام من
اللهو والرقص والسكر.

فى ركن خاص كان يجلس وأمامه منضدة تعج بزجاجات
النبيذ والخمر، يتبادل الكلمات مع جليسه المنتفخ البنية، يرتدى
جلابًا حجازيا أبيض، معدته متهدلة على فخذيه، كلما يأتى
يبعثر الدولارات على شعر الغانية، رغم أن عملته الريال.

أندرون من ذلك ومن جليسه؟ إنه (قرنى) صاحب (اللبانة)
وجليسه عربى أصيل أثرياء الخليج !
قرنى: سيبنى يومين ياباشا. هابسطك.

المنتفخ: إيئش تعمل، أنت أخرك الشمال ياشمال ويضحك
بصوته الفخم الممتلىء.

قرنى: ياباسا العبد ائى قدامك مخيص فى كُيه، هات بس
حادة نسيك بيها العملية.

المنتفخ الخليجي يدس يده فى فتحة جلبابه الأبيض ويخرج
رزمة من الدولارات يستل منها وريقات ويلقى بها، ويقول: خذ
هذا ونشوف إيش تعمل؟ يشير بيده كأنه يهش ذبابة:

– يلا يلا عشان أعرف اتبسط،

ذهب سعيدًا بالدولارات.

* * *

فى حى الزبالين (مدينة القمامة فى مصر) وسط أبراج القمامة
ثمة شئ غريب على معالم تلك المدينة يسمى مقهى ، ولاضيرَ فى
هذا ؛ فالمصريون دائماً ما يحققون المعادلات الصعبة.

وسط القمامة بروائحها الذكية التى تنعش النفس الأخير،
ومناظرها الطبيعية التى ترد الروح إلى خالقها، يعيش أهل الحى
يأكلون ويشربون وينامون ويتناكحون وينجبون أجيالاً تفخر بهم
مشفيات السرطان وأبو الريش ومعاهد الأورام!!

فى ذالك المقهى كان يقعد على كرسى خشبى وأمامه المنضدة
بجوارها الشيشة (النارجيلة) يشهق من فمها ليزفر سحابة دخانية
تزيد من جو المكان فظاعة حين أتاه نبيل فرحا مسرورا.

- خلاص ياأستاذ نبيل ، هنسافر والدنيا شكلها هتلعب معانا
وهنخرج من أم الكهف اللى عايشين فيها.

قالها وهو بيخرج الكيس الذى يضع فيه قرض الهجرة (العشرة
آلاف جنيها).

- اقعد نبيل ، إيه شكلها فرجت عليك ولا إيه؟

- أيوة والفلوس أهي ، شوف لنا بقى الراجل اللى هيسفرنا.

يأخذ أستاذ (وليد) منه الورقات النقدية ويسأله :

- كام دول يا نبيل؟

يرد بأريحية خادعة :

- دول عششترتلاف ما ينقصوش مليون.

- يا بنى أنا مش قايل لك إنه طلب عشرين وأنا زقتهم شوية خلتهم خمستاشر عشان أنت حالتك هباب جاى دى الوقت ومعك عشرة وفرحان قوى بيهم، أقول الراجل إيه؟ مش هينفع يا نبيل جهز كمان خمسة.

نبيل يحاول أستعطف جليسه (الأستاذ وليد) بنبرة الشحاذ الذى يستوقفك فى الطريق يسألك الجنيه من أجل إنقاذ ولده فى غرفة العمليات، كأن أستاذ وليد هو من بيده الأمر.

- يا نبيل مش هينفع؛ المبلغ قليل مش هيوافق ماتحرجنيش مع الراجل. كان هذا رداً لإلحاحات نبيل المتكررة فى صيغة:
- بس اتصل عليه وشوفه هيقول لك إيه؟

ولم يهدأ نبيل فى إلحاحه المستمر حتى رضخ لمراده وأخرج هاتفه وأجرى اتصالاً، دقيقتين استهلها أستاذ وليد ثم أخذ فى الاستماع بهز رأسه وانتهت المكالمة.

نبيل استجوبه قبل أن يضغط على الزر الأحمر فى الهاتف:
إيه قال لك إيه؟

- قال لى:

الدولار غلى يا نبيل، كمل فلوسك وابقى كلمنى.

يعود نبيل إلى بيته حاملاً خيبة أمله أو هكذا يشعر، يفكر نبيل فى حيلة أخرى يدبر بها أمر خمسة آلاف) أخرى ليكمل تكلفة الهجرة، نبيل جعل الهجرة شغله الشاغل ولن يهدأ حتى يستقر به الأمر على ظهر المركب بهذا يحدث نفسه نبيل ليل نهار.

نبيل تفجرت فى داخله كل ينابيع الطاقة والحماس، ويعاود الكرة إلى العمل فى المعمار متسلحًا بسلاح الصبر والحلم معاً وهو فى انشغال فكرى وبدنى من أجل حلم التغريبة الذى هوسَ به واقعه اليأس

نبيل فعل كل الحيل، تصّبر وتحمل العمل الشاق، حرم نفسه وأمه من إنفاق كانان بحاجة إليه، حاول الاقتراض فلم يجد من يقرضه .. أو بالأحرى لم يجد من يأمنه على قرضه، ومنهم من إن تستقرضه ديناراً يقرضه لك ومنهم من إن تستقرضه درهم لا يقرضه لك. وكان قوم نبيل من النوع الأخير

لم يجد نبيل غير رهن الحجرتين اللتين تأويان جسد أمه المريض؛ هذا من أجل الوصول للمبلغ الذى سيدفع به إلى تاجر الأمل .. سفير النعيم الأروبي.. ليضعه فى قائمة المهاجرين إلى ضفاف اليورو الأروبي؛ لينتشل شبابه المفتور من حضيض الفقر والفاقة إلى قمة العيش الرغد المأمول، بهذا يعتقد.. ولهذا يسعى.. يحاول .. لهذا يرهن ماوى أمه !.

نعم الألم قد يحرك الساكن، ويوقظ النائم، ويجعل العاجز يركض وراء حلمه، ما دام فى هذا الحلم الخلاص والأمل، ما دام فى هذا الحلم الشعور بالوجود، ما دام فى هذا الحلم النجاة. التغريبة بالنسبة لنبيل - رغم ما فيها من مخاطر- هى الطريق الوحيدة للعبور إلى الحياة الكريمة التى يأملها

هذا التفاؤل المفرط - والانصياع وراء تكهنات نفسية مغررة، وراءها أقدار مجهولة - جعل من شخص بائس معدوم الحيوية،

مفقور البدنية، شخصاً معانداً مثابراً، يصارع المتاعب والمصاعب؛
ليصل لمبتغاه المجهول

هل يسلك الإنسان طرقاً وعرة دونها الموت من أجل حلمه؟

هل يبيع الإنسان أمانه المطوى بالضياع، من أجل راحة دونها
المهالك؟

لا ينتنئ نبيل وأمثاله من الشباب الذين سئموا الحياة بين
أحضان وطن بئس عن أى سبيل قد يعفيهم من الجهاد الباطل
لتلك الحياة الراقدة على أرض ذلك الوطن!

جاهد نبيل كل متاعبه ليكمل ثمن تكلفة الهجرة وعانى الكثير
والكثير حتى اكتمل نصاب الهجرة وبدأ يهيئ أموره مع أمه
ليعلن لها أمراً بات محتوماً..

أصبح مطلوباً..

صار هو الحل!..

كان جالساً على كنبته التى تهالكت من جلسة نبيل عليها
وأصبحت رثة وملجأ للبراغيث وقوافل الصراصير. أمه تبسط
أرضية الحجر المتعرجة - كعادتها - بين الكنبه العتيقة والسرير
الهش الذى أصبحت ملته الخشب أضعف من الورق الأصفر. فى
حجرها قطع نقدية مبعثرة - لو وضعت فى راحة كف طفل
رضيع ما ملأتها - هذا حصاد يومها وما أفاء الله عليها من
تجارة حُزيمات الفجل والجرجير. بضاعتها المتكل عليها رزقها .

«يلا الحمد لله على كل حال» كانت هذا الجملة التي نطقت بها تعبيراً عن قلة دخلها وربحها هذا اليوم، قالتها وهي تعد وتحصى النقود القليلة.

لا شك أن تجارة الحاجة (أم نبيل) تأثرت بسعر الدولار العالمي الذي ارتفع مؤخراً ليحقق رقماً قياسياً في تاريخه.

ولأننا من الدول النامية اقتصادية ونعتمد في إنتاجنا بنسبة ٧٠٪ على الواردات من الخارج؛ فسعر الدولار يتحكم في السوق المصري، فتزداد الأسعار بارتفاع سعر الدولار. ورغم أن تجارة (الحاجة أم نبيل) تتمثل في ٣٠٪ إلا أنها تأثرت هي الأخرى بسعر الدولار، وقلت نسبة المبيعات لدى الحاجة أم نبيل؛ مما دفع أم نبيل لتقليل وارداتها من الفجل والجرجير، وأوقفت بيع البصل، وهذا من الحلول الاضطرارية التي يلجأ لها متاجرو المنتجات الاستهلاكية التي لا تقبل التخزين. ما علينا من حركة السوق وعالم الجرجير نعود لنبيل حيث أزعن أن يخبرأمه بأمر السفر.

- ياما أنا هسافر.

ردت أمه بنبرة كلها أسف وحزن بشفقة :

- إسكندرية، وشغل بالمدة تانى يانبيل!! يا بنى احنا مش حمل مرمطة، أنت بتتعب وبتتبهدل وعافيتك بيتشتكى وانا ست مريضة محتاجة حد جنبي، (ثم عقت بتصعب) هو أنت صحيح بتجيب فى الشغل دا قرش كويس، بس خلىنا كدا أحسن، وأهى ماشية ومستورة وربك يرزق.

كلام أمه الذى يبث الخوف والشفة عليه كاد أن يراجع لسانه
عن إبداء ما يستره من أمر الهجرة لكنه عزم القول والبوح بالأمر.

- إسكندرية إيه ياما أنا هاسافر برة.

لملت نقودها المبعثرة من حجرها وأودعتها الصرة القماش
وربطت عليها ثم قالت :

- برة فين يا ضنايا؟

رد نبيل وهو يهرش فى خده الأملس كيف له أن يعلن لها الأمر:

- برة البلد دى خالص!

وعلى خلاف المتوقع لحالها شرعت قائلةً :

- فين.. العراق من ساعة ما دخلوها اللي ما يسموا الأمريكان
وموتوا الراجل الشهم وهى بقت خراب دمروها يابني ، ! وليبيا
بيقتلوا بعض بالسلاح والمصريين بيهجوا منها وبيرجعوا وأديك
شوفت ولاد الحاج عاطف الاتنين رجعوا بعد غربة وبهدلة تلت
سنين حافين ولا وارهم ولا قدامهم ورجعوا يشتغلوا أنفار من تاني!
والخلايجة ماعدوش زى الأول والسفر لبلدهم بقى غالى ، بس يابنى
ربنا ينولها لك ويوسع رزقك ربك كبير يا نبيل.

قالت الأخيرة وهى تدس صرتها تحت الوسادة البالية.

نбил كان شاردا فى خياله عن استطراد أمه للمنطقة العربية
وأحوال الهجرة لها لكنه أجاب عن سؤالها المذكور أنفا:

- هاسافر أروبا.

لم يكن نبيل حدد قبلته بعد، فنصيحة الأستاذ وليد لم يقابله ليحدد له اتجاهها بوصلته فى الهجرة المنتظرة.

وأنتهى الحديث مع أمه على غير ما كان يظن نبيل، أن تدرك أمه كيفية السفر لأروبا، فضلاً أن تدرك أو تعرف ما هي أروبا؟
بعد خمسة أيام.

لم يكن حتى الزبالين أجمل منظرا مما سبق عندما قابل نبيل أستاذ (وليد) فى ساحته مذ شهور، بل ازداد ازدحاماً بواردات القمامة وأمتلأت الثغرات التى كانت فارغة حتى أصبح الحى مدينة لأكوام القمامة بأنواعها، على نفس القهوة الذى يتجرع زوارها الشاى المعبق بعطر المكان، تقابل نبيل مع الأستاذ (وليد) ثانيًا، لا بل ثالثاً أو رابعاً. نبيل ما زال فى نشوة من أمر السفر المحلوم.

- كام يا نبيل الفلوس كلها اللى معاك؟ بادره بهذا السؤال قبل الترحيب أستاذ وليد، ونبيل بلهجة مغرور مستوثق من أمره يرد:

- عشرين باكو ورق جديد والله الورقة تدبح الجمل.

- لأ، أنت كدا يا ياسطى ممدد على ظهر المركب تحت الشمسية كمان سيبنى اتصل على الرئيس اللى هيسفرك، وربنا يكرمك بقى وتسافر يا فقر.

نبيل باسطاً يده إلى السماء:

- يارب .

وشرع الأخير فى محادثة أحدهم عبر جواله

ثم حديث بين الطرفين طال لمدة ثلاث دقائق ونبيل منتظر حتى أنتهي استاذ وليد من حديثه عبر الجوال واغلقه موجهاً كلامه لنبيل :

- بص يا نبيل الراجل قال لى : أن الدولار رفع وتكلفة الهجرة كمان رفعت ، (وبفلسفة اعتراضية من الأستاذ وليد عقب) أنت عارف يا نبيل أن كل حاجة مرتبطة بالدولار، بس قعدت أكلمه يحاول يزجك فى السفرية الجاية وقلت له هتكسب فيه ثواب، فقال لى خلاص هيجى بالفلوس اللى معاه ويكتب وصل بالباقي، قلت إيه يا نبيل؟

نبيل وافق على شرط السمسار فاتصل الأستاذ (وليد) به ثانية ليحدد ميعاد سفر نبيل ومعه - طبعاً - التوقيع على إيصال الأمانة، عرف نبيل الميعاد فعاد لأمه وكله فرح وهناء، ابتسمت أساريه وابتهجت. رأى لأول مرة فى حياته البائسة شعاع نور يداعب ظلمة دنياه. فى تبختر مهزوز- شئ ما - وطأت أقدام نبيل أرض يابسه مخصبة بالأمل المنبوز بأقذار يشوبها الحسر والندم، لكن نبيل ينقل خطواته على هذه الأرض بلا أدنى تمهل أو ريب يجعله متفكراً فيما سيؤول إليه قدره.

* * *

(ذكرى هـ)

بعد شهر من حكي أبيه لقصة (محمد) عاود محمود الزيارة لخاله وأخذ يستمع له عن أمر سفره لإيطاليا وما جناه من ثراء نعيم أوروبا، حكى له كيف أتته فكرة الهجرة والسفر للخارج ومساعدة ابن خاله فى تسهيل أمر الهجرة عبر البحر، ثم مسيرة الكفاح فى الخارج والعمل لجمع المال وأول ما جمعه من مال، والتنقل من مدينة لأخرى حتى استقر به الأمر العمل فى الميناء فى الشحن والتفريغ، ولأن محمود الفتى الذى لم يتجاوز السابعة عشرة يحب الإثارة فى الأحداث اقتنع بفكرة السفر والهجرة، خيل لنفسه أنه يستطيع أن يخوض مثل هذه الإثارة ويصنع لذاته قصة تحكى مثل قصتى (محمد) و(خاله)، وفى أحد المرات بعد الفراغ من العمل فى مطعمهم طرح فكرة السفر لأبيه فلم يعجب والده بما تحدث به الفتى، لكن الفتى لم يقل عن مراوغة أبيه بالحديث عن السفر بعد الفراغ من العمل حتى رضح أبوه لنقاش الفكرة ووعدته بالبت فى أمر السفر مع خاله وكيف له - أى محمود- أن يسافر؟ جاء هذا بعدما أتاه محمود بالأدلة على إمكانية سفره وذلك اقتداء بابن أحد أبناء بلدتهم الذى هاجر وهو يصغر محمود بعام واحد.

محمود يتقمص دور مخبر الأمن ويجمع معلومات عن ذلك الصبي ويقصها على أبيهقَصًا مُملا.. كلما اجتمع به ليدعم قناعة أبيه بفكرة الهجرة، وكلما قص على أبيه الحكايات التي يجمعها يلحظ في عين أبيه الميل للاستماع فيزيد الحكى حبكة ويضيف على الأخبار حشوا كأنه راو يريد أن يقنع قارئيه بما يحكى، وكان يستشهد بأخبار ابن بلدته الذى يرفع صورة على الفيس وهو يعمل فى محلات البيتزا بإيطاليا.

أشباه الأحياء (الفقر ١٢)

بعد شهر من لقائه الأخير فى حى الزبالين وهاتف الفرج - كما ظن نبيل - نبيل مع غروب الشمس كان يجمع ملابسه الرثة التى سيأخذها معه فى رحلته عبر البحر وأمه المريضة تساعده فى جمعها، نبيل يحتار فى اختيار ملابسه ليس لكثرتها وصعوبة الاختيار إنما لأنه لم يجد ملابس مناسبة للهجرة كلها بقايا ملابس مما أكلته الفئران أو نجى من عوامل الدهر

- ياما أنا هاخذ فانلتين وشورت وخلص الراجل قال لي : ما تكثرش فى الملابس والشنطة تبقى خفيفة.

- يا بنى الجو برد وانت يا ضنايا ماشى ف بحر خد حته القميص دى تدفيك قميص بنصف كوم تغايرت عليه شتى أنواع الأزرار.

- لأ ياما كفاية كدا، خدى بالك من نفسك والعلاج ياما، وانا وصيت الأستاذ (وليد) هايشقر عليكى كل شوية.

- ما تعتلش همى يا بنى، خد بالك أنت من نفسك ويا نبيل يا بنى مالكش دعوة بالخواجات بص لأكل عيشك.

وكان نبيل روميو العرب تنتظره الخواجات بفارغ الصبر.

- ممكن تلاقى سمير اللى حكيت لك عنه قول له يرجع لأهله .

(الرحيل قاتل، لكنه أحياناً يكون أهون علينا من
البقاء.. وإن كنا في طريقه نتوقع الهلاك)

الهجرة

«فى هذه الرحلة، رحلة البحث عن الحياة الكريمة على شطآن جنان العالم المتقدم لا نأمل سوى الموت أو الهلاك رفيقا لرحلتنا، ورغم ذلك لا نتراجع ونهدهد مخاوفنا بآمال خادعة مزيفة؛ لأننا ارتضينا أن لو متنا مرة واحدة بإرادتنا خير لنا من أن نموت كل يوم بين أحضان وطننا التعس. فالفقر موت، والعوز موت، والضعف موت، والذل موت، والاضطهاد موت، والاستخفاف بعقولنا موت، وتضليلنا موت، وإسكاتنا موت، وتبديد أموالنا موت، وكبت حريتنا موت، وما هذا الوطن إلا رهن موت!!».

خالد

وفى يوم جمع القدر بين أبيه وبين خال (الصبي محمود) فى بيت جده قبل أن يعاود الثانى الكرة إلى حيث كان مذ أشهر (فى ميلانو)، وبعد أن طعموا وشربوا أخذ أبو محمود خاله منتحياً شرفة البيت وحدثه فى سفر محمود، الأمر الذى لم يكن غريباً بالنسبة لخال محمود؛ لأنه يعلم بفتية ييكبرون محمود ويصغرونه سافروا إلى إيطاليا وحظوا بالرعاية من جانب الدولة تحت (قانون رعاية القصر) يتعلمون ويأكلون ويشربون ويعيشون فى مستوى معيشى راقٍ، فلم لا يكون محمود من هؤلاء؟ أليس خيراً له من قراطيس الطعمية التى لم تساعده فى إتمام تعليمه فزهد التعليم وراغ عنه إلى العمل فقراً وحاجة !

كان هذا مجمل حوار خال محمود مع أبيه، اقتنع الأب بسفر ابنه وآمل أن يرحمه من حرارة الزيت ووقفه المطعم وأنهى حوارهم مع خال الفتى :

– «خلاص على خيرة الله احنا هنفكروا فى الموضوع كويس» .

لم يمل أبو محمود إلا إلى التفكير فى أمر هجرة ابنه الذى لم يبلغ الثامنة عشر وتطورت أفكاره فى كيفية جمع المال الذى سيدفعه ثمناً لرحلة ابنه عبر البحر- ليغتنم اليورو أو الدولارات من الفردوس الأوربي، ورغم رفض زوجه لفكرة الهجرة لفتاها خشية وقلقا عليه من أخطار الرحلة، لكن الأب بدوره السيادة فى الأسرة وصلاحياته الأبوية شرع فى ترتيب الأمور، فنظر فى التكلفة التى تبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه.

وبعد الدعبسة (التفتيش) والتدبير، واللف على الأقارب والجيران للاقتراض جمع (عشرة آلاف جنيهه) ليتبقى خمسة عشرة ألفاً، رجع للسمسار وفاوضه فى المبلغ المتبقى تخفيضاً أو تسهيلاً، لكن السمسار ظل متمسكا بمبادئ المهنة قائلاً:

- احنا مانقدروش نقول لك ابنك مش هيسافر، بس برضه لازم المبلغ كامل، دى أصول ومبادئ بتمشى على الكل، واحنا هنكون مجدع معاك جهزوا كمان خمسة وامضى على وصل بالباقي.

وافق أبو محمود بحل السمسار الذى رأى فيه فرصة لسفر محمود إلى أوروبا بعدما أخبره السمسار أن هناك مركبا ستخوض عباب البحر بعد عشرة أيام.

أبو محمود ينبجس بكل حلوله ليجمع المبلغ المتبقى (الخمسـة آلاف جنيهه) فلم يجد سوى بيع قُرطُ زوجه التى تزين بها أذنيها، وساعده فى هذا ارتفاع سعر الذهب فقد بلغ الخمسمائة جنيهها. اكتمل المبلغ فأبلغ السمسار واتفقا على ميعاد رحيل محمود.

نبيل يحمل حقيبته على كتفه ويودع أمه ويسلك طريقه إلى شارع الأتوستوراد وهو ينظر بتأفف لشارعهم الذى يزخر بمستنقعات الصرف الصحي. نبيل يعبره عبر جسور أنصاف الطوب التى شيدها أهالى المنطقة - عفويا- حتى لا تتلوث أقدامهم وعراوى سراويلهم وجلابيبهم بمياه المستنقعات.

هى مواصلة من على ناصية الشارع إلى رمسيس الثانى، وسط البلد، الذى أصبح كوسط هيفاء من زحام الجمهور عليه.

خالد يجمع أشلاءه فى الحقيبة الرياضية، قميصان وسروال جيز وبعض من الملابس الداخلية، وصورة تجمعه بأخوته، وذكريات مبعثرة فى الذاكرة، هذا كل ما له فى هذا الوطن المطرود منه بأسا.

حمل حقيبتته على كاهله، رغم أن الحقيبة خفيفة، شعر خالد بثقل كأنه يحمل جبلاً فى حقيبتته، وحق له ذلك الشعور؛ إنه حقاً يحمل فى حقيبتته أوجاعه ومآسيه، يحمل ماضياً موجعاً بذكريات جميلة، يحمل مستقبلاً مجهولاً يتصارع فى طياته الأمل مع الألم، نظراته تنسجم مع دموعه لتودع كل ركن فى شقته، كل ركن تقع عليه عيناه يودعه بمشهد من ذكرياته المتسرבלة فى بهو شقته وحجرها؛ فتفيض دموعه أسفاً. وها هو فى تراجيديا الوداع قبل أن يفتح مصرع الباب ليخرج، يقطف أنظاره مشهد هرته وصغارها وهى تركض وهم من ورائها يلعبون، رأى خالد، بل شعر بسعادة القطة وصغارها وهم يلعبون يشعرون شعور الخزى والأسف لو أنه، وما حق له ذلك التمنى !

فى هذا البلد يبدو أن السعادة فيه لغير الآدميين، هكذا باح إحساس خالد المتأزم بلكمات وطنه.

(الرحيل قاتل لكنه أحياناً يكون أهون من البقاء وإن كنا فى رحلته نتوقع الهلاك).

ينزل خالد ويمر على البريد ليدس فى فرجة صندوقه ورقة مطوية داخل مظروف، هى رسالة لكبرى أخواته، فحواها: أنه سافر وترك لها أمر الشقة تفعل ما تشاء بها ويبلغها وأبناءها السلام.

يمشى خالد وقبل أن يخرج من بلدته ويشرع فى سلك طريق
الهجرة حبذا توديع صديق له طالما تصبراً فى الشدائد والمحن،
أخرج هاتفه وهاتفه، بعدما قطع ذبذبات الرنين الصوت: السلام
عليكم

رد: وعليكم السلام يا شيخ محمود، أنت فين؟

الشيخ محمود بداعبة مقصودة:

– أقول لك وما تبلغش عني؟

خالد:

– أقول، سرّك فى بير يا كبير.

– أكيد يا خالد ولا هتبيع صاحبك؟ بدأت أقلق منك.

خالد كعادته فى الهزل:

– خلص مش فاضى أحكى معاك، قول أنت فى البيت ولا زى

المطاريد ولسه بتننام فى الغيط بين عيدان الدرة؟

– هات بس وأنت جاي حاجة نبل بيها رقنا، وخذ بالك

الأرض مسقية وانت جاي شمّر هدومك ما تهبطش زى العجل
الغشيم، يلا بسرعة.

– يعنى يبن عيدان الدرة، (ثم ضاحكاً) من خيببتكم هاتعيشوا

مطاريد وهاتموتوا مطاريد!! سلام.

خالد يغير بوصلة سيره ويبتعد بخطواته عن المبانى قليلا

ليخوض تجربة السير على التراب والغبار، وروث البهائم والطين

يعاكسانه أثناء سيره حتى كاد طرف بنطالونه أن يدنس لولا أنه تفاداه بأعجوبة المراوغة.

فى ساحة دار الضيافة التى تطل على عيدان الذرة وبجوارها الشادوف كان خالد يتأمل ديكورها الطبيعى المرصوص عودًا تلو العود وحزمة تلو الحزمة. وكنكة الشاى وصرة العيش (حُص الأرياف) تبسط خالد الأرض وبجواره صديقه الشيخ محمود وأنساب الحديث مع نسمات الجوالبارد فى أجواء غيظية نقية تخلو من شوائب المدينة المعكرة ، نظر خالد لصديقه وقال فى أسف :

- أنا قلت أجبى أسلم عليك قبل ما أتخلى عن هذا البلد وقد فوضت الأمر للشعب!!

- إيه يا خالد، يئست؟

بنبرة زغلولية أيام الثورة:

- وتعبت، وزهقت، واتعذبت، ومش شايف لها أمل، البلد دخلت سن اليأس شايف البلد دى .. بقت زى البتاعة دي، وأشار للكنكة، التى أسودت وتهالكت وتآكل حجمها من كثرة عرضها على ركية النار غدوا وعشيا وحين الظهيرة. فأكمل على كلامه الشيخ محمود على وتيرته الآسفة على حال البلد :

- والله أنت بتقول فيها!! الواحد حاسس أنه هيموت ومش هيشوف لها فجر خالص، كل السبل ياخالد، انعدمت. !! الواقع بيقول كدا، ثم بكلمات تمخضت عن بقايا أمل مبهوت أكمل : لكن احنا عشمنا فى اللى خالقنا، واحنا بنعمل اللى علينا، وما النصر إلا صبر ساعة، ولا نعلم متى هذه الساعة؟

خالد كعادته الساخرة:

- أنا ياعم ضبطت ساعتى على برة، خليكم أنتم بقى منتظرين ساعة مصر اللي عقربها واقف ومتعطل من ستين سنة وبتحاولوا تصلحوه، (ونبرة الناصح الرشيد) العقرب دا فى جماعة مسكاها بسلاسل عشان مايتحركش لقدام، مش قصى طبعاً جماعتكم رغم أنكم برضه أنتم السبب بغبائكم المفرط، قالها بضحكة مستفزة يشوبها السخرية والحسرة!!

بضيق رد الشيخ محمود:

- دا مش وقت العتاب والحساب ياخالد، الواقع بيحتم علينا التلاحم وترك الماضى عشان نواجه خصومنا، ولازم نتغلب على أخطاءنا ونبص لقدام ولا أنت إيه رأيك؟

وكان رأي خالد :

- إنى سايبها ولما تتلاحموا، دا إن لقيتم لحمه أصلاً اللحمه كل يوم بتغلى عشان الدولار يبقى نادوا لي، أن هاكون لسه برضه مصري.. بس ف البطاقة وضحك ضحكة فاترة مبتورة

- واحنا وقتها هنادى لك ليه، أنت خلاص مش سبتها وبعث القضية؟

- ياعم أنا هابقي ارجع عشان أتلاحم معاكم وأكل لحمه، (ثم أعقب جملة بضحكته المعهودة التى تبوح بمآسى دهره الجاثمة على حياته).

نظر الشيخ محمود لخالد إليه بعين الحيرة وسأله :

- أنت راضى حقيقى باللى أنت مقبل عليه ياخالد؟ حقيقى
أنت مهاجر وأنت مطمئن لكدا؟

رد خالد سائلاً:

- أنت مطمئن لحال البلد؟

الشيخ محمود بعدما تأمل مليا رد في حزن:

- لا..!! وأكمل : ومين مطمئن لحال البلد؟ البلد الذى أسفر
عن أقبح ما فيه وتكشّف فى وجه الشيطان الملعون وأتى برجس
الدنيا والآخرة.

- خلاص مش هتفرق كتير؛ فى البلد خطر وفى الهجرة
خطر، بس أنا فضلت خطر الهجرة على خطر الوطن، وفى
بلدك مافيش أى بوادر أمل، لكن فى الهجرة فى أمل وأمل
كبير، وربك يسترها!!

هذه الكلمات تسربت عفويًا لعمق إدارك الشيخ (المحمود)
وتآلفت مع أحاسيس خالد فأفصح وغالبه البواح:

- أنت عارف يا خالد، الطريقة الللى أنت هتسيب من خلالها
البلد - الللى عفنت دى - لو مجانية أو غير مكلفة؟ كنت هاجرت
زيك ورزقى على الله، وهى موتة ولا أكثر وتبقى محاولة فيها
أمل زى أنت ما بتقول، بس انا خايف كنت ألمم القرشين الللى
معايا وايبع الللى وراى والللى قدامى، وممكن كمان أتداين عليهم
وتيجى الطوبة فى المعطوبة - واحنا الظاهر اننا شعب منحوس-
والركب الللى اركبها تكون فى رمقها الأخير، ولا يكون فيها حد

أمه داعية عليه، تغرق المركب، يبقى موت وخراب ديار. !!
سمعت أنت أكيد عن الموت وخراب الديار؟ هو ذا الموت وخراب
الديار يا خالد!! ربنا يسترها معاك يا صديقي، قالها وكادت
الدموع أن تهرب من حراسة مقلتيه إلى ساحة وجنتيه.

خالد حتى لا يدع جنود الخوف والقلق تتسرب إلى حصنه
الداخلي رد عليه مبتسما:

- لأ يا عم، أنت تخليك هنا، (معللاً) لزما برضه لو مصر
عملت فى اللي عملتيه، أسيب لها حد اطمئن عليها من خلاله.
ثم همّ بالقيام ليودع صديقه بمعانقة لم تكن هذه المرة تلقيدية فقد
تمازجت فيها مشاعر الصداقة والأخوة مع هواجس الخوف والقلق
على الفراق الذى بدا محتوماً.

الشيخ محمود بعد أن مشى خالد بعيدا عنه قليلا متسائلاً:

- وإلى أين قبلتك يا صاحبي؟

خالد يلتفت إليه وبعدها صمت ملياً رد آسفاً:

- إلى أى مكانٍ.. حيث لامصر!

كانت هذه جملة الوداع، وداع وطنٍ فى صورة صديق أو صاحب،
هذا الوداع الذى يخلع القلب فيفتره عن خفقانه، ويرمد العين
ويكحلها باكتواء الدمع الجارف. يعجز الكلام عن بواح ذى الألم.
تختل المشاهد باضطراب المزاج المعصب بلثام الحرق والأسى. يلعن
وطنه ويتهمه بالجناية فى حقه ويرى ثأره بالهجرة والرحيل
عنه، لكنه فى إحساس متابين يشج رأس العناد ويصدعها ويسمع

همسات الوطن ترنم أذانيه بذكريات الماضي بما فيها من أفراح
وأتراح، هذه الذكريات التي لا يكفرها سوى جاحد بالوطنية لم
يرعَ للأرض التي تربي عليها حق وإن لاقى ما لاقى من كمد
وبأس فى سبيل العيش، أحاسيس ومشاعر مضطربة متباينة لكن
هناك عامل مشترك بين تلك المشاعر وهي بلاغة الموقف المتجسدة
فى صورة الدمع الحار.

خالد بعدما فرغ من طقوس الوداع ورحل عن صديقه ركب
(تاكسى الإسكندرية) تلکم العرببة التى رسمت لنفسها صورة
صفراوية اللون على لوحة عروس البحر فزادت من شوارعها
وميادينها جمالاً. يسير التاكسى على كورنيش المتوسط حيث شاء
خالد. يخرج خالد نظره من نافذة التاكسى الزجاجية واضعاً
خده على يده، يشاهد كل ما يمر عليه - كأنه سائح لأول مرة
يزور الإسكندرية - يرى الأشياء كأنها هى التى تتحرك من أمامه
وتتلاشى مع السير، وهكذا يشعر فى داخله، أن الوطن هو من
يرحل عنه، وليس هو من يرحل عن الوطن ولعله يستشهد على
شعوره بهذا البيت للمتنبى:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا إلا تفارقهم فالراحلون همُّ

وفى الحقيقية كما أن القانون الفيزيائى يكذب الخدعة البصرية
فإن الواقع يكذب شعور خالد فى الرحيل، خالد هو من يرحل..
هو من ينأى كما أن التاكسى وهو من يسير.. ويبتعد..

على مقربة من منحدر الشاطيء استوقف خالد التاكسى ونزل
ثم أذن له بالرحيل، نزل المنحدر ليجد أخمصه تلامس أحجار

يضربها تموج الماء، صوت البحر يطرب مسامعه وكأنه يرحب به. حقيبته على كتفه وعيناه شاردتان فى صفحة البحر الواسع. صمت وهدوء.. وسكينة مع صوت البحر العازف فى وقت لم تحم الشمس بعد، مازال الغدوّ حاضرا، فى خلسة من مشهد الصمت التأملى هربت عين خالد إلى مركب صغيرة ترسو بجواره على الشاطئ وعلى ظهرها صياد يبدو أنه يستعد لصيد رزقه من أحشاء البحر المالح، يجهز شباكه، يلمح خالد صبيا يقترب من مركب الصياد ويناول شيئا ويعطيه الرجل شيئا آخر، دنا الصبى واقترب قرب المكان الذى يقف فيه خالد فأسرت هيئته أنظار خالد ببنتاله المهترئ، مرقع ومقطّع ونعله الذى تهالك وانبرى فضلا عن الوسخ الذى يغطى وجه الصبى لكنه فى يده شص وأتى للصيد، بدأ خالد فى مراقبة الصبى وتعجب من هيئته وزاد تعجبه كيف يفعل هذا الصبى بتلك العصى التى لاتزيد عن طوله إلا قليلا وهذا الخيط القصير (خيط الشص)!! أى طعم هذا الذى يأمل الصبى أن يأتيه بسمكة، ! لعل الرجل الذى ابتاعه طُعم الصيد قد يخوض شساع البحر نهارا ولا يرجع بشئ منه، ألهدا الصبى أن يغنتم شيئا؟! الصبى يطعم سناره ويلقى به فى الماء الذى يأتى ويذهب بحركة الموج، إقترب منه خالد بعدما رآه بشصه، رآه كلما ألقى بسناره علق شئ فيها.

خالد فى نفسه وهو يتأمل المشهد:

«يبدو أن هذا الصبى مرزوق وله حظ موفور، شصه يصطاد ويأتيه بالسّمك».

يدنو منه خالد طمعاً أن يناله شئ من حظه «الصبى تغلب على تعاسة الظروف وظلام الواقع ، وفي نفسه يسأل» أحق فى هذا الوطن هناك أحد محظوظ ويرتزق بلا تعب ولا إرهاق؟

خالد يشاهد الصبي ، وقدلفت انتباه خالد شئ ما يفعله الصبي ، ماذا يفعل؟

يلقى بما يصطاد فى البحر، الشئ الذى أثار دهشة خالد فذهب إليه وشاهده عن قرب ؛ ليضحك خالد ويهم بالرحيل بعدما رأى صيد الصبى سمكا صغيرا .!! تيقن عندها خالد أن هذا الوطن خادع فيما يبشرك به أو يعدك إياه، وأنه صائب فى رحيله ، سيقضى هذا الصبى يومه جاهدا ، وستحرقه الشمس وتزيد من سواده وسيفقد طعمه الذى ابتاعه من الصياد دون أن يعود بسمكة يصح أن يطلق عليها صيدا!

«لابديل عن الرحيل» هذا الجملة التى أذعن بها لنفسه وهو يصعد المنحدر ليكمل مسيرة الرحيل.

في حرب ٧٣ عمى الى كان واخذ باله من أبويا ساعتها
مات في الحرب

ركب نبيل الثعبان الحديدى الذى يراوغ المدن بصوته القارع ،
وساق القدر أن يتجاور فى المقعد ويتراقق فى الرحلة شاب فى
الخامسة والعشرين نحيف البنية ، يتبختر فى هزال وضعف ،
قسامات وجه مشربة بالهمّ والغم ، غير مبالٍ بمظهره وشعره الأشعث ،
يرتدى سروال جينز طال عليه الأمد ، فوقه قميص لا يُعرف له
لون بنصف كم واسع عليه مثل السروال ، الحزام لف خصره لفة
ونصف اللفة من نحافته ، وفى قدميه ينتعل شبشبا بصباغ ، بهيئته
هذه كاد الركاب أن يناولوه شيئاً مما يجودون بها على الشحاذين .

تبادلا التعارف ببعضهما بعدما عرفا أنهما يسافران فى رحلة
واحدة مع نفس الرجل . بدأ يسمع نبيل قصة صاحبه بعدما سرد
عليه قصته التى ظن نبيل أنه سيحتضنه ويزرف الدموع تعاطفاً
معه ، لم يعلم أن قصة صاحبه أصعب .

بص ياواد عمى :

فى حرب ٧٣ عمى اللى كان واخذ باله من أبويا ساعتها
مات فى الحرب زى ماجلتلك : ابويا كفيف ومكنش ليه إلا هو ،
لما مات فى الحرب مرات عمى خدت نص البيت اللى كان
اربع جوض أخذت جوطين وأبويا أخذ جوطين الناس جالولها :
اجوزيه واكسىبى فيه ثواب .

جالتلهم : ماجوَز واحد أعمى .

راح الشيخ اللى كان بيصلى فى الجامع بالناس واخذ أبويا
وموديه عند جمعية خيرية وجال لهم : عايزين نجوزوا الراجل دا
عشان حد يساعده وياخذ باله منه .

جالوله : ماشى وشافوا له واحدة كانت برضه تبع الجمعية
 بيصرفوا عليها وبيسعدوها عشان كانت عندها تعب فى دماغها
 ولسانها تجيل، واهلها ناس فُجرة جوي، المهم الجمعية لت
 تبرعات وظبطوا الجوطنين لابويا وجوزوه، وبعد خمس سنين انا
 اتولدت وشوية من معاش السادات على شوية تبرعات، أبويا
 كان بيربينى ويجيب علاج لامى عشان لسانها اللى بيتجل،
 كبرت ورحت المدرسة لحد تالته إعدادى وجعدت عشان اشتغل
 واساعد ابويا شوية فى الورش وشوية فى الغيطان اجمع فاصولية
 وبطاطس واعزأ لما وسطى اتقطم. نظر لنبييل وهو يقول والله ياولد
 عمى كنت بقوم الفجر افضل مميل لحد ما تليل وفى الآخر
 اقبض ٧ جنيه واروح اترمى زى الكلب الميت وامى عشان تعبانة
 فى دماغها مكنتش بتاخذ بالها منى كنت بنام بعرجى واجوم
 بدرى على الشغل وانا تعبان، وفى يوم ابويا حب يسخن لى
 اميه عشان استحمى وهو بيثيلها اشنكل إدلجت عليه سلخت
 ايده ورجلو الناس خدوه وغيرو على ايدو. نظر إليه نبيل تعظفا
 واردف فى غير اتزان فى كلامه : طب. أنت مسافر وهاتسيب
 أمك العبيطة وابوك الأعمى لمين؟! المفروض ماتسبهومش وتمشى.

هرش عبدالجواد فى رأسه مطاردا شيئا يعبث فيه، ورد:

– والله ياواد عمى أبويا اللى جالى سافر، فى يوم كان جاعد مع
 عمى الحاج سويلم تحت سجرتهم بيشربوا الشاي، عدى عليهم
 صابر ولد أبو الجعايدة جعد معاهم شرب الشاي، وجى منين
 ياصابر جال لهم: كنت بجيب التحويلة اللى بعثها «صادج» من
 برا، أصله صابر دا يا واد عمى مسافر من اول عامنويل ومكنش

حليتهم اللذة، عمل شوية فلوس من بلاد الخواجات وبيبعت لأخوه كل شوية على البوستة أخوه أشتري محرات واستأجر حثيتين أرض وأشتري جاموسة عشر من السوج. يضحك نبيل من لهجة هذا الصعيدى ومن بساطته فى السرد وبراءته فى الحوار. لم يدر نبيل أنها آخر ضحكة يتلوى بها فاه.

- بتضحك ليه واد عمي؟

نبيل:

- لأ مافيش كمل، كمل يا برنس.

بس ياواد عمى أبويا جال لصابر لو أخوه يعرف يشوف شغلانة لى فى بلاد الخواجات معاه؟ رد عليه صاج وجالو: هتصل بأخويا وهاجوله، وبإذن الله ياعم أبو «عجواد» يشوف له مصلحة هناك، وبعد سبوعين «صاج» خبط علينا عشية وجال لأبويا: أنى ممكن أسافر وعرفنا بالراجل اللي سفر أخوه، أبويا كلم الراجل اللي سفر «صاج»: عايزين نسفر «عجواد» احنا من طرف «صاج» الراجل جالو: جهز عشرين الف جنيه أبويا بعدها باع النص جراط الأرض اللي حيلتنا وجالى: هتسافر يا عجواد وكلم «صاج» انو يجابلنى لما اروح بلاد الجواجات. نبيل لأول مرة يظهر عقله أنه لديه قدرة على التحليل والطرح عندما طرح هذا السؤال على عبدالجواد سائلا: طب ليه يابرنس بفلوس النص اراط، أبوك ما عملكش مشروع، كان فتحالك دكان ولاشافل لك أى حاجة بيهم تاكل منها عيش ويطلع لك منها سبوية بدل الشحطة وبهدلة السفر، ويا عالم ممكن تلاقى شغل بعد متسافر ولا لأ؟

- يا واد عمى أنا جولت له :

يابويوا أنا هشتغل فى الغيط وبفلوس النص جراط عالج امى
ونفسك بيها

جال لى : انت هتسافر زى ولد الجعايدة وتتبعنا لنا فلوس و
انت اللى هتعالجنى أنا وأمك.

كانت هذ آخر جملة قالها عبجواد لنبييل قبل أن ينزلا من
القطار ويفترقا نفى زحام محطة مصر.

بعيدا عن تساييح البحر وعزيف أمواجه، فى بلدة شعبية من
حى عزبة سعد (مقهى الزمن الجميل) المذيع فى التلفاز يقرأ
أخبار الخامسة مساء .

وزير القوى العاملة يصرّح :

«توفير مليون فرصة عمل للشباب والمرتبات تصل لـ ٨٠٠٠
ومصر لا تعانى البطالة، كما يناشد الوزير الشباب ويدعوهم للعمل
وأن يخرجوا من تحت وطأة الكسل والخمول ويشمروا سواعدهم
لبناء وطنهم الغالى».

نظر خالد لساعده فرأى الساعة قد هرب عقربها من الخامسة
وعشرة دقائق، المفترض أن الرجل الذى سيأتى ليأخذه إلى المركب
لعبور البحر- فى رحلة سفارى فى شوارع أو مطاعم أو أوروبا
بحثا عن الـ ٨٠٠٠ - لم يأت بعد تأخر عن ميعاده.

- تشرب حاجة تانى يا باشا.

بغمزة لم يفهم إشارتها خالد، هطل عليه كالظل المنكسر وقت
الظهيرة، تغافل خالد النادل المشكوك فى أمره ونظر لهاتفه الذى
صخب بالرنين

صوت غلبت اللهجة الصعيدية فيها لهجة البحر (اللهجة
الاسكندرية):

الباشا معدى؟

نظر له خالد وتأمل بنيته التى حجبت نور الشمس، قبل أن
يجلس بجواره وسأله:

- أنت خالد؟

يرد: أنا خالد

بنبرة بوليسية راغت للشك:

- افتح شنطتك.

فتح خالد فرجة حقيبته وفضح سترها الداخلي،

وقال مشجعاً:

- زين برضه مخفف ودا افضل. ثم مشيراً بيده علامة الرحيل:

هات شنطة خلجاتك وبيننا يلا.

المذيع: اللقاء المرتقب بين منتخبنا الوطنى ومنتخب غانا،

اللقاء الذى يعول عليه التسعون مليون أفرأحهم وآمالهم، خالد

يائساً:

رد : بغشوميته السخيفة

- ..(ما معناه أن أباهم ضاجع أهمهم في عذرها)

يضحك خالد : احنا قدمنا كتير يا كبير؟

- دقيقة ونوصلوا.

و صدق فى قوله ، فلم تمر الدقيقة - سيرا على الأقدام -
حتى رأى خالد قدمه قد ركنت أمام عربة الترحيلات.

- اركب يا ابويا اركب.

قالها الصعيدى لخالد بنبرة تجسدت فى مشاهد المداهمات
الأمنية ، خالد لم يركب بل شحن مثل المعتقل السياسى فى
ساحة العربة ، التى تضيق بمن فيها من بشر سُحنوا مثل خالد.

خالد يتأمل الوجوه الشاحبة ، وهو يراوغ نفسه أملا فى
اكتشاف ثغرة يجلس فيها بين خضم التكدر البشرى فطرق هازلًا :

- الأخوة مهاجرين ولا مسافرين؟

لم تلقَ هزلية خالد أدنى استحسان يذكر ، ولم يسمع لها ردًا
سوى الصمت والعبوس الطاغى من المهاجرين.

- إحنا ف العربية أجيلنا يومين مستنين الراجل . بصوت صغير
رد على خالد؛ فظن خالد فى بادئ الأمر أن أذنه بها شئ من
الهوس ، لكنه تأكد أنه صوت حقيقي ، وأن أذنه مازالت تعمل ،
ولم يصبها مكروه بعد ، وهذا لما سمع :

- ما سمعتش الراجل هايجى ميتى؟

نظر لمصدر الصوت فإذا بفتى لم يتجاوز العاشرة- أو تجاوزها
بقليل - من عمره هو من كان يتحدث، يقرفص فى ركن فى
مقدمة صندوق العربة بجوار سمين أربعينى وآه بجسده الممتلىء.
مرت ثلاثون دقيقة لم يتفوه أحد من الشخوص المتكدسة بكلمة،
وظلت أنفاسهم تشهق الانتظار وتظفر بالملل فى ترقب بعيون حادة
تقتل بجحوظها الثاقب، وجوه يومئذ غبرة، ترهقها قترة، أولئك
هم من ينتظرون الهجرة.

خالد يفتر الصمت المداهم ويهمس لمن يقعد جانبه :

- احنا منتظرين هنا ليه؟

نظر إليه بطرف عينه ورد بمضض :

- مش البرنس قال لك مستنين الراجل، وهو يلوّح برأسه
تجاه الصبي، واسكت بقى عشان متعملش مشاكل، عشان هما
محذرينا من الكلام.

نازع خالد شعورا بالكبت والتقييد لكنه تعامل مع الأمر على أنه
من طقوس ختام العبودية التى تشيّع بها الوطن وصارت من سجاياه.
مرت ساعات الغسق وداعبت مصابيح الدجى منفذى العربة
التي يتكدس فيها خالد ورفقاء الهجرة، يشهقون الانتظار ويزفرون
الملل، واتشحت وجوههم بالعبوس والضجر. وفجأة يقطع الصمت
صوت محرك السيارة وتبدأ فى السير، تندت الوجوه العابسة
بقطرات من الراحة عندما توقفت السيارة وفتح الباب طويل
البنية، وبصوت ريفى مزيف :

- معلش يا جماعة أتأخرت عليكم شوية، بس أمان كدا
نقدر نمشى ونروح البحر.

بدوره خالد سأله منفتاً بعض كبته :

- وممكن نتنفس ونتكلم؟

بابتسامة فترها الحذر رد :

- ممكن.. بس ياريت بصوت واطى عشان الطريق.. والحرص
واجب. تسير السيارة وصمت الركاب يتلاشى شيئا فشيئا مع
رتابة سيرها، بعدما شرع خالد مخاطبا :

- احنا بالصلاة على النبي كدا محشورين فى عربية واحدة،
اللى زى الزنانة، مسافرين ومهاجرين هجرة واحدة .. وممكن
يوجدنا القدر فى مركب واحدة، فعازين الرحلة تبقى جميلة،
تعود علينا وعليكم بالخير وربنا يستر ولايانا ..

بلهجة سودانية :

- انتم يا مصريين تموتوا لو مهزرتوش.

خالد :

- طب ياعم عثمان خد بالك من الراجل الصغير اللى فى
ضلك عشان دا أمل بكرة وطموح الغد.

ومع اختلاس السيارة مدى الطريق لرحلة تتكشفت للمهاجرين بأملٍ نازفٍ ، تناثر الحكى والكلام من شفاه تلتفت بالصمت طيلة يومين ، فى هذين اليومين عانق فيهما الخوف والقلق مهج المهاجرين فنفسوا عن أنفسهم بالحكى والحوار المهموم .

خالد لشخص يبادلُه النقاش متسائلاً :

– وانتم قاعدين فى العربية من يومين ليه؟

يرد وكان وجهه مغبر بالصمت :

– أنا أول ما جيت ركبت العربية وشوية وجماعة جم وركبوا ، وشوية تانى جماعة زيهم جم وركبوا هكذا دواليك لمدة تلت ساعات وكل جماعة مايركبوا يجى شخص ويقول لنا ممنوع الكلام والتزموا الصمت لحد ما نجمع زمايلكم والراجل اللي عارف الطريق يجى ونمشى كدا لغاية يومين واحنا منتظرين عزيز مصر يفتح لنا بوابة الخروج من المحروسة.

خالد بنرفزة لا داعى لها :

– ليه هو معاه خريطة العالم !!

فيرد الآخر ساباً :

– والله ياعم حاجة آخر (...) كلمة إباحية ؛ فضحك خالد وسأله :

– أنت منين يا ذوق؟

– أنا خليل م الجيزة.

عقب خالد :

- بلد الأهرامات .

- وأبو الهول .

فسأل خالد :

- ساكن فين فى الجيزة؟

- فى الهرم.

يهازله خالد متسائلاً :

- الكبير ولا الصغير !

فيرد الآخر بهزل أعمق :

- الوسطانى جنب أبو الهول.

ومع تغافل المهاجرين عن الطريق بثررتهم الكلامية، قطع أذان الفجر لهوهم الكلامي، لتهدأ أنفاسهم بعدما أوصاهم العابر السودانى ترديد الأذان ليحميهم الله ويستترها معهم :

- رددوا الأذان يا أخوة عشان ربنا يستترها معنا

فى وقت يبهتُ فيه ستار الليل من سطوة الصباح الشارق، وقفت السيارة التى يشحن فيها المهاجرون أمام بوابة حديدية عملاقة تعكس القتامة التى آلت إليها حال المهاجرين. نزل أحدهم من الكابينة وبصوت كاسر لبقايا الليل المحتضر نادى :
أن افتح البوابة.

فتحت ضلفة البوابة التى أيقظ صريرها - الذى ينبئ عن فتح ترباس اعتراه الصدأ - نعاس المهاجرين الذين أنهكهم ترنح السيارة فى سيرها، ولجت السيارة البوابة ثم أعاد مواربتها ذو الشارب المتهدل والوجه القاتم الواجم الذى عانى السهر، نزل من بيده مقاليد الأمور وخريطة العالم - حسبما ينعتة خالد- وفتح للمهاجرين باب العربة الخلفى وأذن لهم بالنزول.

نزل المهاجرون من العربة كأنهم ينزلون جبلاً مما يحط بجسدهم من تعب وأرق بسبب حبسهم المقصود أو غير المقصود داخل صندوق العربة لمدة يومين، وبأمر من صاحبهم جعلهم يستوطنون هذا المكان إلى أجل غير مسمى ورحل بعدما أجابهم عن سؤالهم: متى سيعود لهم أو متى سيخوضون البحر؟

«استنوا بس لمدة كام يوم على ما جماعة زيكم ييجوا وهتسافروا معاهم».

تتناثر أنظار بعضهم فى كراكيب المكان المزدحم بأشلاء السيارات وقطع غيارها المتراكمة والمتغبرة بالأتربة والصدأ، يدندن بالمكان صوت الهواء الذى يتخلل بين أكوام قطع الغيار المتسرب من نوافذ مفتحة وغير مفتحة أعلى جوانب المخزن الواسع، ومن المهاجرين من سعى جسده المنهك الهامد بين الفروج الضيقة للأكومة من غلبة النعاس والنسيم البارد، حتى استعار الجميع هدنة من وساوس فكره واستنكر هواجسه التى تجرى فى سراديب رأسه وسلم جسده لسطوة النوم الزاحف أرقاً وتعباً.

ناموا جميعاً ومنهم خالد. إلا قليل .. حتى تسربت إليهم أشعة الشمس الواهجة من تلك النوافذ العالية ليقوموا من رقاهم المقوت بكوابيس الهجرة حتى رأى أحدهم أن المركب التى سيعبرون بها البحر قد غرقت وكانت هى حكاية الصباح لهؤلاء الباحثين عن لطافة العيش عبر طرق وعرة.

أخذ الصعيدى الغاشم يدلى بحكيه لما رآه فى منامه والكل يسمعه بامتعاظ وتشاؤم.

- ياعم غير الحكاية دى، حلم إيه اللى أنت رايح تحلم بيه دى الوقت!!

من تحت بطانيته الرثة التى تتغلب برائحتها على رائحة الشحم والصدأ الذى يكسو المخزن سأل:

- هو احنا فين ياجدعان؟ حد عارف؟

فيرد عليه هذا الفيومى الذى أتى من غرب النيل حاملاً أملاً مسبوقةً بفشل مرةٍ سابقة، حاول من خلالها عبور الشاطئ الآخر لبلاد النعيم الأوروبى لكن شرطة الخفر نكلت بآماله وأعادته إلى وطنه غانماً التحسر .. كاسباً اليأس .. حائزاً على لاشيء من مال الهجرة:

- احنا هنا برج (ميغيزل)، يعنى برة الأسكندرية، أنا جيت المكان دا قبل كدا.

حملقت العيون إليه وهم فى صمت لحديثه - كأنه الشعراوى حين يفسر آيات الذكر الحكيم فى جامع الحسين.

- وما تخافوش يا جدعان احنا صحيح ممكن نستنى هنا
كام يوم لحد ما العدد يكمل وبعد كدا هنروح على البحر على
الطول.

قالها ببساطة يحسد عليها ! .

سأله أحدهم بنبرة بدوية :

- عدد أيش اللي هيكمل؟

رد: أصل صاحب المركب بيجمع أكبر عدد من الناس المسافرة،
أمال مش كله بيدور على الفلوس، ودى رحلة الفلوس؟

قالها وهو ينصحهم قائلاً:

ادعوا ربنا يسهلها ويبعت اللي له نصيب انه يعدى البر
التانى بسرعة عشان مانستنناش كثير .

- هو أنت حاولت تهاجر قبل كدا؟ سأله خالد.

- ومين ما حاولش، أو مش عايز يحاول ف الحالة الجبس
اللى احنا عايشين فيها دي؟!

خالد يطبق شفتيه ويشير له بخنصره وهو مقبض أصابعه
إعجابًا بقول الرجل!!

يسترسل الفيومي فى حديثه عن محاولته السابقة ويقول:

- كنا تلاتة جينا مع بعض من بلدنا بعدما كل واحد فينا
اتصرف وجمّع حق الهجرة للسمسار، فينا اللي باع صيغة أمه
وفينا اللي أداين لطوب الأرض، وأنا كان معايا قرشين شايلهم

لزنقة الدنيا اللي كلها زنقة على ثمن بقرة بعثها وقولنا نتوكل
نسافر على بلاد الخواجات ونعدى البر التانى نقصد باب رزق
واسع، ! سمعنا أنه هناك الأبواب واسعة وأى حد ممكن يلاقى
باب يطلع منه م الفقر اللي قاتلنا: يلا ياسفر، يلا ياسفر، جينا
مكان برضه زى دا فى نفس العربية، وبعدين قالولنا هتسنوا شوية
لحد ما نجمعكم.. الشوية كانوا كام يوم، !! بس ربنا سهلها
واتجمعنا واركبنا المركب، وفى البحر سمكة وفى ايدى شبكة،
(الكل مازال يحملق وينصتون له) والغربة هلكة!!

– لبيبيبييه؟

كان تعقيب جماعة منهم فى صوت واحد.

– ما تفتكروش إن الموضوع سهل، احنا لو ربنا كرمننا بمركب
واحدة على السفر وعارفة الطريق، ممكن يتقبض علينا من شرطة
الموانى فى أى بر ويرحلونا ونرجع كما كنا ودا اللي حصل معانا
أنا واللى كانوا معايا من خمس سنين.

ثم متنهدًا كأنه متذكرًا ماضيا:

– يااااه، ! أيام الرخص كان الدولار باربعة حنيه، كانت أيام
الثورة (٢٥يناير) كان الشباب هايج ف الشوارع وإحنا شايلين
شطننا وماشين م البلد، احنا كنا هنرجع وقولنا ثورة البلد حالها
هيصالح والشباب بتاع الفيس والمثقفين هيعدلوا الدفة، سأله خالد
بعدهما تذكر مشوره على الفيس بدعوة الحشد لنزول ٢٥ والذى كان
سبب فى اعتقاله قبل خروجه مع فتح السجون:

- وإيه اللي خلاكم كملتم فى السفر؟

يرد فى شئ من الحزن:

- بينى وبينكم عمى الله يرحمه هو اللي نصحننا وقال لنا: يا شباب اتكلوا على الله وانفدوا بجلدكم من البلد دى، لا يغركم هياج الشباب والثورة؛ البلد دى تاريخها كله ثورات وحالها بيرجع أسوأ مما كانت عليه قبل الثورة، دا نابليون ماقدرش يحقق طموحه فيها وسابها ورجع بلده.

ثم أثنى على عمه قائلاً:

- كان راجل كُبارى وفاهم، كان مدرس تاريخ .. عزق فى الغيطان لما وسطه اتقطم.

- وبعد كدا ..؟ سأله بعض المهاجرين، فأجاب متحمساً:

- وبعد كدا وصلنا لجزيرة «لا مبيدوسيا» والشرطة الإيطالية بعد ما رحبت بينا وقامت بالواجب وغدتنا بعنت لأهلنا فى مصر اللي هما طبعاً الأمن، جم ورحلونا..وهنا فى مصر برضه أهلنا عملوا معنا الواجب وكلكم عارفين واجب الأمن المصري.

يعقب خالد بهزة رأس:

- عارفين عارفين. !!

لم ينته الحاكى من حكايته حتى انتصف النهار فى ترقب مؤرق للمهاجرين تناثروا فى رتابة وعشوائية منتظمة، يجولون فى أرجاء المخزن منهم من يقضى حاجته، ومنهم من يقطع شيئاً من الملل الذى أصابه، ومنهم..ومنهم.. والكل يجمع أشلاء

وهكذا مر نهار اليوم الأول للانتظار ولم تُقبل أية بشارة
للرحيل عن هذا المكان الصاخب بكراكيب السيارات الهالكة
والأتربة المتراكمة.

غربت الشمس فى صمت واهن وغطى الليل بردائه الحالك
أجساد المهاجرين لينغمس بعضهم فى نوم هاجع مطمئناً لحاله
مثل الذى سبق له محاولة الهجرة سابقاً، ومن لا يزعجه انتظار
الخروج من قمم الوطن المزدحم بأمثاله، ومنهم من قطع ليله فى
بعض الحكى مع الآخر والنوم أحياناً، حتى أذن الفجر بصوت
هاتف أحدهم، لينصح العابر السودانى رفقاء المهاجرة بترديد
الأذان: رددوا الأذان عشان ربنا يسترها معنا.

وفى نشوة إيمانية تتجلى وقت الضيق والكرب، عبقت أشلاء
السيارات بروحانياته المؤقتة صلى معظم المهاجرين صلاة الصبح خلف
إمام غريب أم قومًا فى ديارهم ظناً من منهم بأنه الأحق بالإمامة
لأنه أوصاهم بترديد الأذان فصلى بهم ركعتى الصبح بالفلق و الناس.

* * *

بهت الليل واندثرت النجوم خفاءً وصيحات الديكة تترنم بها
أذان أم نبيل هناك فى منشية ناصر بعدما قامت تصلى وتدعو الله
أن يسترها مع ابنها فى هجرته ، وكعادتها تخطو كل صبح نحو
ركنها المعهود تنتظر الصبي ، مورد بضاعتها (الفجل والجرجين)
تقتطر (ام نبيل) من السماء رزقها الذى يأتيها فى صورة نقود فكة
تحملها فى قعر صرّتها البالية فى نهاية النهار والرزق مرهون
بالسعى والطلب ، وهذا ما تؤمن به الأم المكافحة.

– ما لها خُضرتك دبلانة النهاردة ياست ياطيبة؟

صوت مسنة تلف شالها الذى يغطى نصفها الأعلى وبصوت
خرج من فيه تشعبت التجاعيد من حوله كحوارى منطقة شعبية.

لم ترد أم نبيل فأعادت المسنة تقول:

– أم نبيل ، انتِ مش سامعاانى؟!!

تنتبه أم نبيل: ها..

– إيه باقول لك جرجيرك دبلان ليه؟!!

أم نبيل ترعى خُضرتها من ظل الشمس بأن تغطيها بقطعة
خيش مبلى وبين الفينة والأخرى ترشها برشات مائية لتحافظ
على نضارة الفجل والجرجير من الذبول ، لكن هذا الصباح تغافلت
عن هذا لانشغال فكرها بابنها المهاجر.

– ماله؟ ما هو مفتح ووروير وصباح وبيتكلم ، خدى بالهنا
والشفا للعيال ، ناولتها حزمتى جرجير وكم رأس من فسيل البصل
وراحت المسنة تتكئ على جدران الحوارى.

محمود فى سبعة أيام قبل حمله حقيبتة على كاهله وتوديع أمه الساخطة على أمر سفره عاش فى خياله يبني فيه صروح أمجاد مادية ويشيد أبراجاً من الإنجازات الشخصية، وأتى اليوم الذى توضع فيه آخر أعباق أنفاسه وعطور رائحته بين أحضان أمه.

أصطحبه أبوه إلى حيث أخبره السمسار إلى برج مغيزل برشيد ومن هناك تبدأ الرحلة.

لم يستهلك التاكسى الذى يستقلانه محمود وأبوه وقوداً كثيراً وقد وصل إلى قرية برج مغيزل بكفر الشيخ.

هناك فى حى المعصرة كان الوداع الأسرى حول أمر الهجرة الذى لم يسمح لهم القدر بغيره حلاً، بعدما تغير مسار قطار فتاة عذراء، وبعدها كان من المفترض أن يصل بها إلى محطة الزواج كنهاية عزوبية ملساء وبداية لحياة زوجية يطمرها السعد والهناء وفق قضبان أسرى صنعته أمٌ غيور محافظة وأبٌ حنون مهاود، تغير المسار وتزاحمت الأقدار غير المتوقعة فمات أحمد الحبيب، فأحدث رجاء على موته حداداً نفسياً، وكانت صورته هى بداية تحرك القطار نحو محطات لم تدر رجاء ولا أهلها ما ينتظرها فيها، تتبنى رجاء دور الناصفة لحقوق الإنسان المعتال بأنياب الوطن المذنب فتداهما أجهزة الأمن وأصبحت حياة رجاء مليئة بأشباح المطاردة الأمنية التى لم تترك لها سبيلاً من الخلاص سوى الهجرة حفاظاً على عذريتها التى كادت أن تنتهك ومستقبلها الذى وئد فى مهده

فلم يعد لرجاء أمل فى هذا الوطن لتكون الهجرة هى الحل.

- طب يا بنتى خدى بالك من نفسك طمنينا عليكى باستمرار،
أنا مش عارفة كان مستخبي لنا دا كله فين.

- وحدى الله يا أم رجاء، كله قدر ومكتوب، ربنا يسترها
معاكى يا بنتى.

- سامحنى يا بابا ماعلهش ماكنتش عيزة حياتى تكون كدا،
بس انت ربتنى على كده.

يرد أبوها بعدما جدولت الدموع على خده:

- ربنا يسترها معاك.

رحلت رجاء عن بيتها وأسرتها ترجو النجاة عن طريق الهجرة
فى سرية محظورة خشية المداهمة الأمنية.

سلطة المال

هناك فى سيارة (جيب) سوداء كانت تقف تحت كوبرى نادى السكة قرنى - ويده اليسرى على مقواد السيارة واليمنى تتحدث بالإشارة - يتكلم مع أحدهم بلدغته:

- يا عم أنت تصّيف، باقول لك الزبون الميه دىّ واحد مبيان خيجي، دى مصيحة كويسة.

- بس أنت طلبك المرة دىّ صعب، أنا أعرف أجيب لك واحدة بتاع ليلة اتنين يا عم شهر، بس واحدة تسافر لالا صعب مستحيل.

قرنى: يا عم هو حد تايل السفر دى اللى انت هتجبتها هتعيش وهتشبرأ معاها على الأخى وأحسن من الأنقاض اللى أنتم عيشين فيها دي.

يهرش فى لمته بعدما شردت عيناه من زجاج السيارة ويقول:
سيبنى شوية.

تسأل قرنى بيده: قد إيه الشوية دوى؟

يرد: شهر كدة ولا حاجة.

يقولها بأريحية فينتفض قرنى قائلا:

- كتييبى بقويك الراجل مستعجى معاك أسبوع.

- ماشى هاحاول.

قالها وهو يفتح باب السيارة لينزل قبل أن يلقفه قرنى حزمة من ورق من فئة المائة جنييه.

قرنى: شوف حاجة تشيفنا بيا .

ببرود رجولى يضحك معقبا:

- هو أنا بصبهما.

قرنى بعدما شغل محرك السيارة وحرك عصا الفتيس للأمام:

- اتصيف بسبعة.

ألفا جنييه كانتا دفعة تحفيزية جعلته يعمل عقله الذى صدّأته المخدرات والمسكرات وجمال بتفكيره فى بيوت منطقتة؛ لعله يجد صاحبة الجسد المطلوب، سبى كل نساء المنطقة فى مخيلته لم تنج من سطوته أية امرأة، بكر، ثيب، متزوجة، مطلقة، أرملة، مخطوبة، كبيرة، صغيرة.

أحضرهن واستعرضهن وكأنه عضو تحكيم فى مسابقة عارضات أزياء، هذه تنفع، وتلك لا..، هذا بدينة سمينة، وتلك نحيفة ضعيفة، هذه جميلة، تلك أجمل. ظل مع خياله وتفكيره طوال الليل حتى أصبح فى الغد وقد وجد التى تصلح أن تكون سفيرة عن المنطقة فى مهمة جنسية من نوع

خاص (وقوم لوط قال لهم: «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ».)
ملكة جمال سوق الخضار كانت هي صاحبة الحظ في البعثة،
باعت نفسها من أجل الحياة الكريمة وهاجرت هي الأخرى -
بطريقة غير شرعية - إلى مدينة الحرمين لتعتكف خادمة شهوة
في بيت صاحب الجلباب الأبيض، يضاجعها بدولاته الوفيرة
وعطاءاته الكثيرة.

«عندما تكون لعبة الجنس هواية الأغنياء ومتنفس
الفقراء فهناك سر، وعلى علماء النفس وأخصائي علم
الاجتماع أن يجلوا لنا هذا السرّ ويكشفوا لنا سيكولوجيات
هذه اللعبة».

لأنك كلما زاد فهمك ووعيك في هذا البلدِ مِتَّ قهراً
وحسرة على ما نحن فيه.

فى اليوم الثالث لانتظار المهاجرين - فى المخزن - لركوب البحر فُتحت البوابة الضخمة لتولج سيارة مثل الذى أتى فيها خالد ورفقاء الهجرة المؤودة وقفت وسط أنظار تترقب وتنظر إليها بأحداق أسهدها الانتظار، نزل من السيارة فوج آخر من المهاجرين، وبانسيابية مضطربة تسربوا بين السابقين، لم يأت مع هذا الفوج «فاتح المحروسة ومن يمتلك خريطة العالم» لكنه أخبرهم بتفاصيل الأمر، وكطبيعة للأمر فى أى حال يسأل اللاحق السابق فيما سبق؛ لتأخذ الأسئلة حظها من هذا اليوم، ويتناثر الحكى والحوار بين كراكيب المخزن، ويأخذ التعارف على هامش الهجرة حقه فى كسر ملل الانتظار.

خالد يتعرف على شخص أتى مع الفوج الجديد ويتبادل معه الحوار والكلام:

- طب أنت ما دخلتش الجيش ليه؟ سأله خالد.

- ماكنش عندى وقت أضيّعه.

خالد يعقد حاجبيه: إزاي مش فاهم، تقصد إيه؟

- يا عم جيش إيه اللي هاروحه!! العسكرية كانت الأول فخر ورجولة لكن دى الوقت العسكرية بقت ذل وإهانة ومرمطة.

- إزاي؟

- تروح الجيش لتخدم الباشا وولاد الباشا، تحرس له الفيلا وتشتغل كلب حراسة، والا تقف على الحدود فى سلاحك طلقة واحدة ممنوع تضربها من غير إذن القائد وفين القائد فى

الاستراحة ! يعنى لو كلب مسعور مش عدو هجم عليك هيومتك
وتبقى شهيد الكلب المسعور.

خالد بسخرية: بس الجيش بيدربك ويخليك تتحمل الصعب
ويخليك تقوى جسمك.

ينظر لخالد بعين الاستنكار ويرد: دا بيكدرك ويكسر نفسك
مش بيدربك.

- الجيش واجب واطني، أنت مش وطنى ولا إيه؟ قالها
بابتسامة تنوء عن السخرية.

- آه، واجب زى واجب المدرسة، بنعمله مش حباً فى الواجب،
بنعمله خوف من اللى فرض وقال على الواجب، ! وسلم لى على
الواجب.

سلم عليه خالد وهو يضحك وشد بيده:

- تعالى معايا نشوف لو حد محتاج حاجة من الناس دى ودا
الواجب، فقام معه وطافا يتفقدان أحوال المهاجرين تطوعاً واجباً.

خالد ومن معه يطوفان بين رفقاء الهجرة منهم من يهمس
بالحوار، ومنهم يتلو آيات، ومنهم من يركن تعباً للنعاس
ومنهم... ومنهم...

خالد يرى اثنين يفترشان الأرض على قصاصة من جريدة. قطعة
جبين قديم راثحتها تزكى الشهية وكسرتين من العيش البلدى
وحبات طماطم. الرجلان يلتفان حول تلك المائدة الريفية بانسجامهما
المكنون بهمسهما الكلامى الذى قطعه خالد بالتحية والسلام:

– أهلا بأهلنا الفلاحين.

يردان: أهلا، اتفضل معنا.

خالد يقرفص ويلتقم لقمة يذيب بها الجليد للتعارف.

– ما تقدم تاكل معنا.

لمن معه:

– شكراً؛ مليش فى الحادق.

– الرجالة منين؟ سألهما خالد، وبفضولية مسموح بها تعرف
عليهما خالد

أجابا بحماس التعارف:

– من الشرقية.

نافع وجلال، الأول مدرس ابتدائى والثانى حرفى طلاء (نقاش)
صديقان منذ الصغر سئما المعيشة وقررا خوض الهجرة بعد مغالبة
الحياة وتزاحم مطالبها مع عدم إسعاف أجورهما لمطالب تلك
الحياة الصعبة.

نافع عبر عن احتياجه:

– أنا مدرس شغال مثل التور فى الساقية والمرتب لا يكفى
قوت خمسة أيام أخرج من صباح ربنا وأرجع فى عتمة الليل
بعد تعب وإرهاق وفى نهاية المطاف لا أجد سوى وريقات معدومة
الكثرة والبركة!!

جلال اكتفى بقوله:

- ذاهب لبلد عندها تأمين لأمثالى لأن بلدنا ليس فيه تأمين للصنایعية !

طافا يتفقدان معاً أحوال رفقاء الهجرة فيمرون على شباب جاءوا صحبة يأملون أن يعبرا البحر قاطعين أهوال الغربة بهذه الصحبة، وآخرين معهم أطفالهم هم أيضا ينتظرون ركوب البحر فى جمع أسرى لا يثنىهم عن فعلتهم هذه لا خوف ولا وجل؛ لأنهم ذاقوا أشد المأسى فى وطنهم، وآخرين وآخرين.

الانتظار فتر الحكى فيما بينهم، وزاغت عيونهم عن التأمل فى وجوههم التى تغبرت بالأرق، مرت خمسة أيام ولم يأتهم أحد بخبر حتى سأل أحدهم المهاجر الفيومى الذى سبق له محاولة عبور البحر عن المدة التى انتظروها قبل ذلك، فأجابه: إنهم انتظروا سبعة أيام؛ فهذأت مخاوف المهاجرين بعض الشئ وركنوا إلى سكنة الانتظار يهددون وجلهم بشئ من الحكى فيما بينهم، وتألقت الصحبة بينهم ليكتشف خالد أن من بين المهاجرين محمود أحد زملائه أيام الدراسة فى الثانوية وابن بلدته قبل أن يقطن خالد الإسكندرية من عشرة أعوام. تعجب خالد من رؤيته بين المهاجرين، محمود الذى كان يابى أبوه أن يذهب للبلدة المجاورة لحضور درس الفيزياء الخصوصى هو الآن يذهب للبلاد الأبعد، كيف هذا، وما أجبره على هذا؟

يجيبه محمود شعراً كعادته:

متقولش علينا كلام يكثر فيه العجب

إحنا اللى وطننا قال: نصوم عاشورا ف رجب

خالد: ولسه مهووس بالشعر؟ فاكّر أيام الإذاعة المدرسية يا
عرابى وأبيات شعرك التى كانت تقيم ثورة المدرسة على الناظر
بيها نطالبه إنهاء الحصة السابعة، ثم يكشف عن ثناياه بقهقهة
لماضى المدرسة

ضحك محمود الشاب الثلاثنى الذى ترك زوجته وطفله فى
سن المهدي، قاصداً شطآن الغربة يغترف من خيرها ما يحسن له
أمر معيشتة:

- فاكّر ياعم خالد. بس الكلام دا ماينفعش فى بلدك ما
يوكلش عيش!!

- ما بلغت من التعليم يا صاحبي؟

- لقد بلغت سن الكهولة منه يا صاح.

ضحك الاثنان فيعقب الأخير سائلاً:

- انت لسه فاكّر اللغة العربية الفصحى يا خالد؟

- وهل أنت تسمح لى بالحديث معك بغيرها يا أصمعي؟

فأردف تائراً:

- لكن البلد دى مش عايز لا متعلمين ولا مثقفين، دى عايزة

ناس معلمين وصناعية يبنوا فيلا للباشا أو يصلحوا له ماسورة
سباكة أو يشتغلوا أمن على بوابته.

خالد بضحكة تبدت من طرف ثناياه:

- إيه ياعم المعلم الكلام دا؟

- ماتستغربش لأنى بعد ماخلصت تعليم اشتغلت فى الحاجات
دى كلها واكثر، عشان ألقى أأكل نفسى، وكل عام وانت طيب
على تعليمك وشهادتك وباليتنا لم نتعلم ولم نفقه حال هذا البلد.

- ليه بتقول كذا؟

يرد على خالد بنبرة تحسر:

- لأنك كل ما زاد فهمك ووعيك فى هذا البلد كلما مت قهراً
وحسرة على ما نحن فيه.

- ياعم ما أنت زعلان بس عشان ما عرفتش تتعين بشهادتك،
طب إيه يعنى ماده الطبيعى مين فى بلدك شغال بشهادته؟

بلسان شكوى يرد:

- أنا الحمد لله لا اشتغلت بشهادتى ولا بغيرها، اشتغلت
بذراعى، وشلت على كتفى، كنت ساعى وأجير فى المبانى
والمحارة ورجل أمن وعمرت مصر كلها والحمد لله ورايح أعمّر بره
عشان اربى الطفل الصغير.

خالد: ربنا يحميه لك ويخليه. عايزه يا خالد يطلع يلقى
حاجة يسند عليه عشان ما يتمرطش زى ابوه.

- أنا ناوى بإذن الله لما الدنيا تستقر معايا برا واعمل قرشين
أعلمه واريه برة؛ تعليم هنا مش قوي، مش بيأهلك لسوق العمل
اللى هو أصلاً زحمة عن سوق الجمعة، وبينى وبينك كفاية قوى
على مصر نوسع لغيرنا.

- كفاية ليه يا صاحبي مصر مهما تكون هى برضه أم الدنيا.

كأنما جملة صاحبه إستفزته؛ فثارت فى جوانحه جنود
الغضب فعقب بحرقه:

- صحيح مصر أم الدنيا لكنها ليست أمنا نحن الفقراء
الغلابة، الذين شوهت حياتهم الفاقة والحاجة، مصر أم (نانسى)
و(صافيناز) وأمثالهم، احتضنتهم بثناءها ونعيمها المحجوب عن
أمثالنا ونبذتنا فى الغربية نقصد ليبيا أو البحر أو الخليج أو أوربا،
تتخبط فى الأقدار والأقدار تتخبط فينا...!! لا ندرى ماذا نكسب
غدا ولا ندرى بأى أرض نموت.

يضحك خالد ساخطاً:

- عربى سيخطب فينا أهه.

ندت ابتسامة حزينة حاسرة من طرف شفتيه:

- ولا عربى ولا سعد، دا بس من الوجع!

الوجع، الوجع المكتوم فى نفوس استرضت نفوراً من وطنٍ ساء
بهم الظن أوعدّهم رقوق أبقوا، فاستحال هذا الوجع إلى ثورة على
الانتماء، وعمدوا إلى الرحيل تيمموا حرية سواه، ومولين وجوهم
شطر ثراه.

فى اليوم السابع تدخل سيارة أخرى من البوابة وينزل منها
وفد آخر من المهاجرين. وكسابقيهم يتخللون ويندمجون فى لحمه
الآخرين ليصيروا كالجسد الواحد الهارب من تحت الأسلاك
الشائكة أيام ٦٧. وتمر أيام وأيام حتى يأتهم فى الخامس عشر

صاحب إذن خروجهم من هذه البوابة الموصدة العملاقة ليركبوا
البحر بعد انتظار أرق أجسادهم سهراً ونحلها جوعاً .

باعذار مصطنع ولهجة جافة وعيون قاذرة ينوء عنها السخط:

- ماعلهش يا جماعة اتأخرنا عليكم شوية.

قالها قبل أن تنهال عليه - سرّاً - قذائف اللعن والسباب،
اعتراضاً على تركه إياهم أياماً دون إخبار بأمرهم شحنوا فى
سيارة أضخم فى حالة انتفضت بالغضب لتسع مجالاً للفرح
المخبوء تحت القلق.

وهناك على مرسى يعج بالزوارق ولنشات الصيد توزعوا عليها
فى البحر الواسع حتى كاد أحدهم أن يتراجع عن ركوب الزورق
خشية هذا البحر الواسع، لكنه عزم الركوب بعدما تراءت له
حياته المكلومة فى صورة واعظ ينهاه عن الرجوع، فالبحر أرحم.
تشق الزوارق المكتظة بالمهاجرين عباب البحر شارعة فى مداه
الواسع لتصل إلى محطة ما.

هناك فى عرض البحر على بعد كليوات من الأمتار من شاطئ
الوطن، مركب هش هزيل تترقب هلاكها -غرقاً فى قاع البحر-
مثلها مثل مراكب الهجرة غير الشرعية، هذه المركب تأبى
خوض فزع الهلاك وحدها، تنتظر شباباً وصبيان وافدين إليها
وهم يحملون على عاتقهم وكواهلهم آمالهم وطموحاتهم فى حقائب
قد تكون أكفانا لرفات بعضهم. هذه المركب تنتظر لتحمل معها
هؤلاء الشباب والصبيان الذين هم مستقبل هذا الوطن الموحوع،
ليواريه فى جوف الحيتان، أو يرمى به على شطآن الغربية،

لتكون النهاية لكمة على وجه وطنٍ ثمل، أو مسحور عن الوعى الحضاري.

هيكل من الألواح والأعمدة الهشة المتلاحمة على هيئة مركب من طابقيين حملتها المعهودة مائة راكب لكن لجشع وكفر أباطرة تجارة الموت سيحملون هذه المركب فوق طاقتها ويشحنون فى ثلاثتها وعلى ظهرها خمسمائة شخص ومن يعترض لا عذر له سوى البحر، لاوقت للمناقشة فهم فى عرض البحر وتحت رحمة سمسار نزع قلبه ووضع مكانه محصلة نقود، لا تسأل عن إنسانية طمست فطرتها بمغريات الثراء الفاحش، أباطرة الموت يحصدون ثروتهم من جيوب شباب جمعوا أمال الهجرة بالدين وبيع كل ما يملكون حتى يعبروا ضيق المعيشة عبر هذا البحر- مهلكة الأرواح - الذى يشرع سلكه أناس استباحوا لحم إخوانهم طعاماً رخيصاً للأسماك بعدما يختلسون منهم ما جمعوا من مال.

ركب المهاجرون بمضض ودسوا فى أرجاءها والمركب تنتظر أفواجاً أخرى تتلاحق على ظهرها ليكتمل نصاب الهجرة.

سُلمت بوصلة التوجيه لقبطان المركب الذى هو أحد المهاجرين وكان يعمل صيادا ومعرفته بقيادة مثل هذا المركب لا تزيد كثيراً عن معرفة مورينيو باللغة العربية، لكنه تطوع لقيادة المركب بعدما خفض له السمسار تكلفة الهجرة.

- لا شمال ولا يمين تفضل ماشى على طول لحد ما توصل جزيرة «كريت» وهناك هما هيوصلوكم للشاطئ ومع ألف سلامة .

كان هذا توجيه الوصى على أمر المهاجرين - كبير السماسرة - للمتقبطن.

دار محرك المركب الذى أفزع بصوته قلوب المهاجرين وأرجفها قلقًا وخوفًا وبدا القبطان مثل الذى يبدأ التمرس على القيادة ليكون بمنظره هذا مبعث القلق الدائم للمهاجرين طوال الرحلة عبر بحرٍ لا يسمح لارتكاب خطأ ولو بسيط.

مؤخرة المركب تحدث فوران فى المياه المألحة - مثل غليان سطح الماء فى غلاية تحت النار - من اندفاع الهواء ويتحرك المركب وتشق مقدمته المثلثة عباب البحر شارع غير راجع فى مداه الواسع .

* * *

فى التجمع الخامس فى استراحته الفاخرة التى شيّدت أركانها على غرار متاحف بيزنطة وسط الخدم والحشم كان يتابع القرارات فى الصحف والجرائد القومية، القرارات التى اتخذتها الحكومة مؤخرًا إسعافًا للاقتصاد المصرى وتلبيةً لرغبة الجمهور الطافح لمال الدولة القادح فى نهب ثرواته والتى كانت منها:

- رفع الدعم عن المواطن .

- فرض ضريبة القيمة المضافة ١٣٪.

ولأن الجنيه المصرى خفيف ورشيق فى سوق العملة فقد تم تعويمه فى سقطة اقتصادية من المسئولين.

ومن ضمن القرارات التى يتابعها:

رفع معاشات وأجور رجال القضاء والجيش - الذى هو أحد رجاله - تكافلاً من الدولة لجهدهم فى بناء الوطن.

دندن هاتفه فناولته ذات الساقين الشمعدان العاريتين فوق الركبة، والشعر الحريرالأصفرالكستنائى المنسدل على عيون قطية عسلية، والوجه الأبيض اللامع :

- ألو..

أزى معاليك يا باشا؟

- بخير ازيك يا سامح بيه؟

- ماعلهش هازعج معاليك معايا.

بحنق يخفيه :

- أقول يا سامح بيه إيه الموضوع؟

- ابن سعادتك.

- ماله؟

- فى مركب خرجت من أسطوله ومحملة ناس مهاجرة ويا باشا احنا قلنا الأيام دى مش مستحيلة معانا شوشرة، دى المرة الرابعة فى سنة واحدة يطلع مركب هجرة .

لم تعد اتصالات سامح له سوى تهديدات بطريقة دبلوماسية فموضوع الهجرة ما هو إلا سبيل يستفزه به ليلين معه عند مجلس الحاشية.

- خلاص يا سامح بيه أنا هاروح بنفسى وهشوف حل للموضوع دا.

يعقب هذه المكالمة بمكالمة لابنه مصطفى ويقذفه بشتائم وتهديدات ويأمره بترك هذا الأمر، ومن ثم أخذ يهاتف أحدهم يستخبر عن أمر الترسانة وأسطول المراكب.

- والله يا باشا اللي هناك دى الوقت واحد عينه شكرى وعرفنا أن كان مكانه واحد هو اللي طرده وهو المسئو..

قاطعہ آمراً:

- تجبلى شكرى دا من تحت الأرض والمركب دى ما ترجعش تانى.

* * *

لم تكن الشمس قد هدأت حرارتها ومالت للغروب وقد خاضت المركب بعيداً عن شواطئ الوطن، خالد كان ممن حظوا بظهر المركب، يرمق شواطئ الوطن التى تتلاشى رويداً رويداً كلما ابتعد شاطئ الوطن فيبدو الوطن كسراب يذهب فى غشاوة العين، يغرب فى عين خالد كما تصفر الشمس فى وجه السماء وتغرب، حتى اختفت ملامح الشاطئ مع ملامح النهار وسجا الليل والمركب يتوق بأعين المهاجرين إلى نهار الغربة قاطعا عباب البحر وظلام الليل بعزم لن يقاوم بعد السفر، وكذا المهاجرون. الليل القاتم والبحر الواسع إذا اجتمعا على قلب مهاجر أخلجاء خوفاً ودغدغاه فزعا، وكان هذا حال الكثير من المهاجرين على ذلكم المركب الذى قطع كيلومترات قبل أن يطل الصبح فى عين باتت ساهرة ليلها. ينظر من على ظهر المركب يمين وشمال وفى كل النواحي لا يرون سوى البحر ولا يسمعون إلا صوت البحر وإذا كان المركب يسير للأمام فإنه يخوض أكثر فى البحر ويترك خلفه البحر، لا شئ سوى البحر.

- أنت متأكد يا أسطى من أنك ماشى صح؟ أحد المهاجرين
- بشك - يسأل المتقبطن.

لم ينظر للسائل وظل ممسكاً بذراع القيادة ورد:
- آه ماشين صح.

انتصف النهار والمركب يسير على قضبان المياه المألحة ولا شئ يوقفه حتى أكمل السير يومين فى شراع البحر، ليقف فجأة بعدما هدأ محركه، وتوقف

فى نقطة لم يستطع تحديد موقعها لتبدأ مرحلة الخطر.

فزح من كان على متن المركب وحاول أحدهم وكان ميكانيكى سيارات معرفة أسباب عطب المركب فنزل باطنها يتفقد أسباب العطب لكنه لم يستطع التيقن من الأمر؛ فسطا الخوف والقلق على قلوب المهاجرين جميعاً، وسادت حالة الفزع. شبح الهلاك بدأ حقيقياً أمام أعينهم

– أين المفزع؟

ينظرون حولهم لا يرون سوى البحر يصرخون وينادون لا أحد يلبى نداءهم سوى صوت البحر المفزع ووجه المتأسد فى وجه المهاجرين. حاول خالد ومحمود صديقه التهذئة من فزع رفقاء الهجرة لبعض الوقت لكن الموقف كان أكبر من احتواء خالد ومن معه لمخاوف المهاجرين.

مرت الساعات المتبقية من النهار والليل يسلب ما تبقى للمهاجرين من نور على متن المركب ليزداد الفزع والخوف فى قلوبهم. رحلت بقايا النور المتبقية للمركب التعس بأهله وألبس الليل برده الحالكة جسد السماء المكسو بطيور الشتاء، وخرزه بحبات النجوم اللامعة، التى تنعكس فى مرآة البحر المظلم، ليحدث الانسجام المشؤوم بين الاستنجد المختلط بتضرع، أو التضرع المصبوغ بالاستنجد، وبين همس البحر الطام على مهج المهاجرين بالفزع، وبين تسبيح النجوم بضيائها فى قاتمة تنبىء بما آل إليه قدر هؤلاء التعساء.

باتوا ليلتهم هذه فى أنس شبح الهلاك يتضرعون إلى الله بالدعاء والاستغفار، لاذين إليه راجين منه النجاة. النجاة من أجل ذويهم وأهليهم، من أجل أطفالهم الذين سلكوا هذه الطريق الوعرة طمعاً فى تبسيط حياة أفضل لمستقبلهم، كان هذا من بوح محمود صديق خالد بعدما واسته القريحة فصرخ بأبيات من قريض العامية:

لا تعيب علينا البحر والبحر طريقه هلاك

تنسينى مآسى سنين وتسالنى من وداك !!

فى مهاريج الهلاك محمود الصبى الذى اختار طريق البحر ليعبر من طريقه إلى سدة أحلامه راکلاً بطموحه طاسة زيت (الفلفل) لأنه حلم لنفسه حياة أفضل؛ فسعى بملكته الطموحة أن ينال تلك الحياة، ويكتب لذاته قصة تخلد ذكراه كخاله الذى طرق أبواب أوربا ونعم بخيراتها، ومحمد ابن الشيخ (هلال).

فى ركن من مؤخرة المركب كان يسبح بمسبحته التى ورثها عن الشيخ هدية من أرملة (أم محمد) بعد أن أوصته بالمحافظة عليها، يحاول بتسبيحه التخفيف من وطأة الفزع على قلبه.

شعر بوقت الفجر فأوصاهم بالدعاء جهراً؛ علّ الله يفرج كربهم، هذا ما كان من السوداني.

بنبرة متحشجة أجمها البكاء المتقطع لم يستطع مقاومة الجزع، تأسف صبره عن تحمل أعاصير الفازعة القارعة، ركن إلى الدعاء بتلك الدموع وردد الجميع بحناجر صارخة، يأملون أن يُسمعوا من فى السماء، أو من فى البحر، فتأتيهم النجاة من قبل يحتسبونها ولا يحتسبونها، ظلوا يدعون ويتضرعون حتى عسعس

الليل وتنفس الصبح، وضحك لهم البحر بوجه مداه الشاسع،
والمركب مازال يركن على شاطئ العطل.

والصبح يطلع علينا زى الليل ما مر والخوف ماسك إيدنا بيشد منا البر!

غرّد بهذه الثثرة المرتجلة شاعر المركب محمود وهو يتأمل
بعين الحسرة مدى البحر الشاسع وفضاءه الواسع.

لم يثنهما ما هم فيه عن افتراض مآذنتهما المعهودة بينهما،
الوافرة بقطعتى الجبن البلدى القديم وكسرتى الخبز الريفى اليابس،
وحبات الطماطم، ينظر لهما خالد بعين التعجب والدهشة على
ما هما فيه من لامبالاة ويسألهما عما نزل عليهم من وحى
الهدوء؛ فيردا بعدما نظرا إليه بطرف أعينهما، وبصوت واحد:
- ماخذناش منها غير اللقمة!! اللى أهلنا تركوها لنا، ناكلها
ولا نسيبها للبحر ياكلها؟

بردهما هذا قلبوا جمر القلق فى قلوب رفقاء الهجرة المؤودة؛
فازداد الخوف أكثر فأكثر فى نفوس الكثير، تراءت لمخيلة
المهاجرين مشاهد الغرق، ورغم أنهم فى ورطة الغرق إلا أن رد
هؤلاء جعلهم يرونه كأنهم قادمون عليه لا محالة.

- بإذن الله يا جماعة، ربنا يفرجها وبيعت لنا مركب،
ربنا كبير (قالها خالد: مدعيًا السكينة والاطمئنان حتى
يهدئ من غارت عليه جيوش الرجفة والفرع، ثم نظر
لمن كان يقود المركب وهو مازال قابضا على كاويلة الدفة،

قال له : وأنت يا عم الربان ماتحاول تمشى تيتانيك دي.
بعنجهية ابن الأحياء العشوائية: ودين أمه لما أرجع لعرقبه
بالمطوة ابن المفتوكة، أخذ فلوسنا وركبنا مركبة هل كان ابن الش...
السودانى : وحد الله يا مصري، وانوى خير عشان ربنا يسترها
معنا .

نظر إليه نبيل وكأنه يقول من هذا؟

توسط قرص الشمس السماء ومازال المركب وسط البحر كشعرة
بيضاء وحيدة تنتصف شعر رأس شابٍ يافع، فهل لها أن يراها
أحد؟

- كلا !

مرت خمسة أيام بلياليها المظلمة على هذه الحال والمركب
يركن لشاطيء العطل وسط البحر الواسع حتى زاد المهاجرون
من فتات طعام وبقايا شراب، فعوض عن مائهم الذى نفذ ماء
السماء، الذى بلل أجسادهم المتيبسة من البرد القارص، وفى
عصر اليوم الخامس يعزف فصل الشتاء سيمفونيته الهائلة من
أبواق السماء؛ ليكون عوضاً عن مائهم الذى نفذ، وتحضر أولى
رسل الردى فتصيب طفلاً رضيعاً بالحمى، الحمى التى لم تبقه
فى حضان أسرته حتى ضحى اليوم التالي، بعدما عجز أمهر
المهاجرين على ظهر المركب عن إسعافه؛ لشدة ما أصابه بسبب
البرد والجوع، ليرحل الرضيع قبل أن يصل لبر الحياة الكريمة،
ويموت وتموت بموته براءة وطنٍ عق أبناءه قبل أن يبروه!!

أغشى على أمه التى لم تتحمل فجيئته؛ فيذبل الأب ويصيب
قواه الخور بعدما كفن رضيعه بحجره البالى وهو يحاول رد أمه
إلى واقع الكارثة، والوعى الفازع.

قرع ألم الفجيعة رأس الرجل فصاح يصرخ بحنجرة أصدأها
النواح:

معلمناش حاجة غير إننا قولنا نغير من عيشتنا الهباب،
الفقر مش عيب!! العيب كلام الناس، العيب العوزة والاحتياج.
وبنيرة شكوى الموجد أشجى السامعين بسرد قصة حياته، إنه
طعم هو وزوجته الملح وربطاً على بطونهما! وأنهما ما سلكا هذا
الطريق إلا ليواريا سوءة الفاقة والفقر التى كانت معيبة الناس لهما؛
فباعا كل ما يملكان ليرحلا لحال أفضل عبر طريق البحر والهجرة.
هدأت حرارة الشكوى وبدت نبرته كعزف ينساب على الانتهاء
ثم مال بنظره على خد زوجته وكان يمسح على وجنتيها الذابلتين
بكفه وقال لها فى خفوت وقطرات دمه تتساقط على وجهها:

– مش قلت لك نرجع من هناك!!

لم ترد الزوجة لأنها ذهبت فى نوبة إغماء ولم ترجع.

جثتان هامدتان رضيع وأمه لم يستطع أمهر المهاجرين- على
ظهر المركب- فعل شئ لهما سوى لفهما فى ألبسة تطوع بعض
المهاجرين بها، فرجاء تبرعت بشالها الذى لف به جسد الرضيع
لتنزع لأول مرة جحابها وتكشف شعرها المستور، لكن الحال فوق
كل الاعتبارات هكذا رضحت رجاء.

الجثتان تسربت إليهما أولى مراحل التحلل بعدما مرت أيام على رحيلهما ليهدى الرجل بعدها ويلحق بركبهما إلى الحياة الأفضل الحياة البرزخية. أسرة ودعت الحياة على ظهر المركب لتزداد أهوال قارعة الهلاك، شباب ورجال نحتوا صخور الجبال ليقننوا رزقهم، بدوا بعد اليوم السابع لعطل المركب كالسكارى، وأصابهم العى والوصب.

لا طعام ولا شراب لا أمان ولا اطمئنان .. لا نوم ولاراحة

ومن يسن أو ينعس يفيق على كابوس الغرق. خارت القوى ونحلت الأبدان.

سلموا أنفسهم لمجهول الأقدار، النجاة الميؤوسة أو الموت والغرق الساعى إليهم. وفجأة صرخ أحدهم:

مركب هناك.. مركب هناك؛ لينتفض الجميع من خوره كانتفاضة الكتيبة على العدو المستسلم، صارخين بأعلى أصواتهم المتشنجة بالتعب، ملوحين بأذرعتهم الهامدة تجاه هذا الشئ الذى بدا من بعيد أنه مركب، لا شئ فى البحر سوى المركب، لكن ياترى أمركب هجرة؟ أم مركب صيد؟

ينادون ويصرخون تجاه المركب لكن الشئ تلاشى عن عيونهم فخرؤا يائسين بعدما داعبهم الأمل بسراب مركب، جن الظلام فى ليلة مقمرة فترأى للمهاجرين المركب ثانيةً فعاودوا الصراخ الميؤوس خالد ينزع عن نفسه قميصه ويشعل به النار ويشيح به للمركب ويصرخ ويشيح ويصرخ حتى التهمت النار يده بعدما أكلت قميصه، ومثله كان يفعل نبيل الذى اقشعر بدنه النحيل

من قرص البرد، لم يهدأ خالد عن الصراخ والهتاف بالاستنجد
يهتف كما كان يهتف فى المسيرات حتى بُح صوته فبات محروق
اليد.. مبحوح الصوت..

(ومن عاش على شئ غرق عليه)

يرتجف قلب أم رجاء هناك فى حى المعصرة، يسقط - وب
اللبن من يدها قبل أن تناوله إياه، ينسكب الحليب على سجادة
الصالة الرمادية، وضعت - فها على صدرها من فزعة السقوط،
شهقت وحملقت، ثم أغمضت وتسارعت النبضات فى صدرها،
ينتفض أبو رجاء من مقعده:

- الحمد لله الحمد لله، بسيطة، خير.

يسيطر الصمت بعد الحمد لثوانٍ. كأنه هو الرد الأبلغ عن
سقوط الكوب الشؤم.

كلاهما تزداد نبضات قلبه ويتحمس الخفقان، حالة من التوتر
جلاها سقوط الكوب.

تتنهد أم رجاء، مازال الخفقان يصفع صدرها، والصمت يلجم
لسانها من إثر حادثة الكوب المسكوب.

هل أخرست؟

هل غُيبت ..؟

ليس الآن، فهى لم تنع فى ابنتها بعد !

يسيطر أبو رجاء على الموقف ويمسك بزمام أعصابه ، يرخى يده إليها يساعدها على الجلوس على الأريكة ، يقعدها ثم يتجه إلى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ينقل خطاه تجاه المطبخ وهو يحدث نفسه ألا تسقط كوب المياه من يده ، رغم أنه لا يتمالك أعصابه والرعدة داهمت وهاجمت أطرافه .

أنامله تمسك بعروة الكوب الزجاجي ، يهتز وتموج ذرات المياه بداخله .

* * *

يا له من حظ سيء..

بدأت الأمواج تعلن عن حضورها ليكتمل المشهد القارع بصورة أخرى من صور الفزع والهلع.

(وعندما تتسابق الأقدار إليك وتكون محض مصيرها.. فأى الأقدار تسبق إليك..؟ فلتسأل ماذا قدمت؟)

تلاطم الأمواج شبح يودى بكل مركب هزيل لا يستطيع مقاومة لكماته أو تحمل صفعاته!!

صراخ المهاجرين المبحوح مازال يشد - أملاً - المركب الذى لم يقترب سوى مسافة قليلة من مركبهم.

لتأتى بداية النهاية مع مداعبة الأمواج العاتية لمركبهم الهش الهزيل، والكل يصرخ ويصرخ.. استنجدوا من الهلاك الواقع بعدما بدأ المركب فى الترنح والتراقص إثر تلاطم الأمواج به، وسادت حالة المرج على ظهر المركب.

وسط مرج المهاجرين والمركب تترنح وتداعب الغرق

تأوى لركن فى نهاية المركب وتحدىج فى وجه السماء الذى بدا سخيفا.. وكأنها تخاطب القمر والدموع تجداول مقلتيها الذابلتين.

هى لا تريد ان ترحل عن الحياة وتسلم لها عهدتها الروحية هكذا، تتمنى لو أن الموت يرجئ مهمته حتى تعود إلى أبيها فتستغفره وتطلب منه أن يسامحها.

تنساب العبرات على مقلتيه وتخمر وجنتيها لتنبئ عن حالة
الخوف والفرع التي تعيشها رجاءً وتتضرع إلى ربها وتدعو : يا
الله، سامحنى إن لم يسامحنى أبى، هذا ما نطق به حالها بعدما
تشنجت أعصابها وفقدت السيطرة عليها.

صرخات الاستنجد الميؤوسة التي تصخب بها أقرانها من
المهاجرين معها إلى سدة الموت تداعب خوفها فتزداد العبرات
أكثر فأكثر، وكأن عينيها تفيضان من نبع هذا البحر الذى ستؤول
إليه قريباً فيحدد مصيرها.

« لا لا.. »

هكذا هتفت، وكأنها تريد أن تسكت عن أذنيها هذا الصخب
من الصراخ الميؤوس، وبدما لم تجد من لم يسمعها رنت إلى
السما، فإذا البدر بكل سخافة ينظر إليها ببهجة وابتسامة قمرية!
رنت إليه بجفن يلمع ويبرق كثرم الطبية.

إن الدموع مسحت كحل العين فلمعت وبرقت

كأن عينيها تخاطبان البدر بهذه اللعة، فيضاهى جمالها
جماله، لكن جمال هذا البدر باقٍ وجمال هذى العين آل إلى
الرحيل!!

يقترب ضوء المركب المأمول تجاه المهاجرين ليسابق قدر
المركب المنكوب الذى يترنح مع تلاطم الأمواج، وفزع المهاجرين.
بدت بداية النهاية كشبح أعور ممسوخة إحدى عينييه، يمسح
لعابه الدمائى بأظافره ومخالبه التى تنهش فى وجوه المهاجرين

وصدورهم، شبح يضحك فى صوت البحر ويتراقص فى أمواجه.

يميل المركب فيهرعون للناحية الأخرى، ويسقط بعضهم فى المياه فيحدث تلاطمه بالمياه ارتجاجاً وزلزلة فى مهج الباقين، ومنهم من يلقي بنفسه ليخفف من حمولته وينادى من يستطيع السباحة بالقفز؛ ليسيطر خالد ومن معه فى تثبيت المركب، لكن أين تكون السيطرة فى زحام الموت؟

سمع المهاجرون- إلى الحياة الكريمة أمس، المهاجرون إلى قاع المتوسط اليوم - صوت تفتك خشب جانب المركب الأيمن وكأنهم ينصتون لهذا الصوت من بين أصوات الصخب والصراخ، وصوت البحر، ترامى لهم الصوت بوضوح لبعضهم ورأى الشبح يزعق فى وجه برجرجة مزلزلة ليعلن بوقوع النهاية.. وتنتهى بداية النهاية! الشبح يفغر فاه ويطلب من البحر أن يلقنه - بين أنيابه - جسد المركب محشواً ببعض المهاجرين لقمةً سائغةً لقاع المتوسط.

وتحل نهاية النهاية!

انقلب المركب..

قبل أن تقترب المركب المأمول التى أتت من بعيد نحوهم!! . تناثر المهاجرون فى المتوسط ومركبهم يسلك طريقه لقاع المحيط فى مشهد ختامى قارع حاملاً معه جثث أسرة بادرت بالموت إلى الحياة الكريمة، ومن لم يستطع السباحة رحل فى صحبة المركب إلى جوف المتوسط فى رحلة أبدية عودتها يوم البعث الأكبر!

خالد بصوته المبتور يقاوم المياه وهو يحمل صديقه الذى رمق أنفاسه الأخيرة فى غفلة من خالد، ظل يسبح من استطاع السباحة حتى طلّت - من قريب - البارجة التى شرعت بعلم أخضر.

أتت البارجة فى وقت لم يسعف الكثير .. فانتشلت ما بقى على قيد الحياة .. مابقي شاهداً على المأساة .. وكان خالد يستعير من رثتيه آخر أنفاسها قبل أن يسجى هامداً على متن إحدى مراكب الصيد وهو يرتجف وترتعد فرائصه، ليغشى عليه ويذهب عن الوعى.

بعد بضعة أيام من ابتلاع قاع المتوسط لمركب المهاجرين، إتشح ميناء الإسكندرية البحرى بالأحزان، بعدما توافدت أهالى ضحايا الهجرة المؤودة من كل مصر، من مشارقها ومغاربها.. شمالها وجنوبها.. ريفها وصعيدها..

هرعوا يجرون أذيال الندامة والحسرة!! بعدما ترددت الأنباء عن نجات القليل من المركب المنكوبة، ليفقد الكثير أمل رجوع من يخصه حياً، لكنهم ينتظرون أن يرد لهم البحر أبناءهم وذويهم، حتى لو كانوا جثثاً؛ يكفنونهم ويدفنونهم، ويقيمون لهم المآتم؛ فهم لا يرضون البحر أن يكون قبراً لأبنائهم.

لم يغيب رجال الأمن - من الجيش والشرطة - عن زحام المشهد؛ فهم ينتظرون من يفلت بروحه - حياً - من الغرق، أو ينجو بجثته - ميتاً - من أضرار الحيتان، ينتفضون عليه لإجراء التحقيقات الأمنية.

«ولابد للقانون أن يأخذ مجراه، ما فعله هؤلاء المذنبون جريمة في حق الوطن يعاقب عليها القانون المصرى».

كان هذا تصريح أحد الأبواق الإعلامية التى أيقنت أن ضمير المهنة فى جذب الإعلانات.

وقع خطواته على البلاط عزف لحنًا ميريًا كشف عن هويته الأمنية التى وراها - بلا قصد - فى جاكيت جلد أسود وبنطالون جينز أزرق فوقه قميص بنى اللون. يسير وخلفه عسكري يرتدى بزة سوداء، حاملاً سلاحه على كتفه، وآخر، محضر يتأبطه سجل المحاضر. نفخ فى وجهها دخان سيجارته بعدما قالت له: السيجارة يا باشا، وأشارت بإطفاؤها، حسناء تعيى قلوب المرضى بتلك العينين الساحرتين .

دهس سيجارته على البلاط المشقق قبل أن يجلس على طرف السرير الذى يرقد عليه خالد، وسأله، أشار له أن يعطيه ورقة وقلم وكتب:

فى هذه الرحلة، رحلة البحث عن الحياة الكريمة على شيطان جنان العالم المتقدم لا نأمل سوى الموت أو الهلاك رفيقا لرحلتنا، ورغم ذلك لا نتراجع ونهدد مخاوفنا بآمال خادعة مزيفة؛ لأننا ارتضينا أن لو متنا مرة واحدة بإرادتنا خير لنا من أن نموت كل يوم بين أحضان وطننا التاعس. فالفقر موت، والعوز موت، والضعف موت، والذل موت، والاضطهاد موت، والاستخفاف بعقولنا موت، وتضليلنا موت، وإسكاتنا موت، وتبديد أموالنا موت، وكبت حريتنا موت، وما هذا الوطن إلا رهن موت!!

كان هذا بوح خالد بخط قلمه الذى أناب عن صوته المبحوح
مع إجراء التحقيقات الأمنية معه وهو طريح سرير مستشفى المبرة
بالإسكندرية.

لماذا خضت هذا التجربة يا خالد؟

تمت بفضل الله

